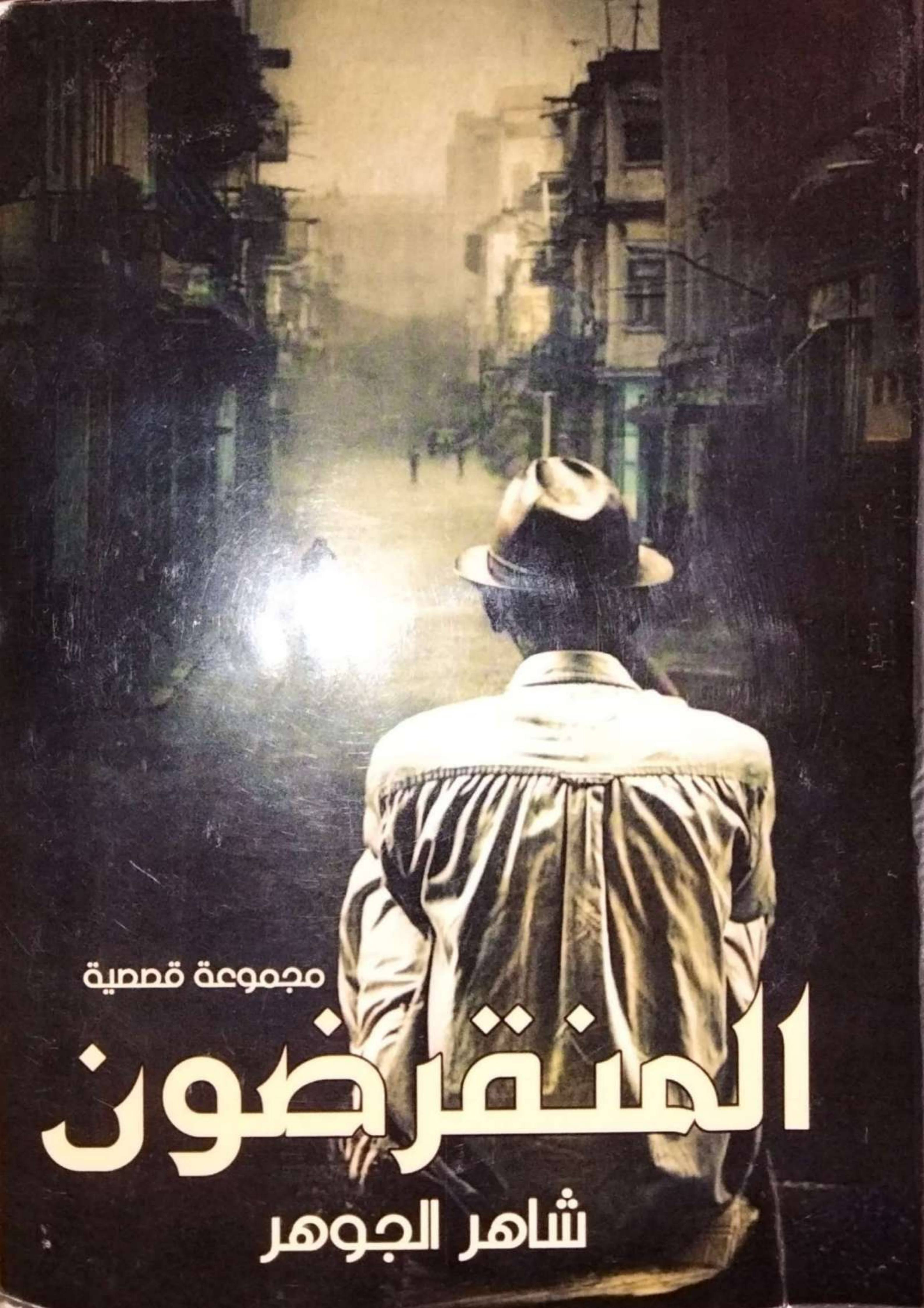

مجموعة قصصية

المتقرضون

شاهر الجوهر

المتقرضون

الكتاب: المنقرضون

المؤلف: شاهر جوهر

تدقيق لغوي: سعاد محمود

تنسيق وإخراج فني: ياسمين مدحت

غلاف: هنا مصطفى

الطبعة الأولى: ديسمبر ٢٠٢٢

رقم الإيداع:

I.S.B.N :

المدير العام: ياسمين مدحت   مدير النشر: مصطفى راجح

دار يونيك للنشر والتوزيع

لمراسلة الدار

Email: uniquepublisher66@gmail.com

Whatsapp: 00201143229148

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق النشر محفوظة © دار يونيك للنشر والتوزيع

لا يجوز استخدام او إعادة صياغة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر والمؤلف وأي مخالفة لما ورد يعد انتهاكًا لحقوق الملكية والفكرية.

المنقرضون

مجموعة قصصية

شاهر جوهر

دار يونيك للنشر والتوزيع

سلامًا لأولئك المتعبين

المنقرضون الطيبون

من كانوا جواز عبورنا.

ولازالوا هناك

لوحدهم

لم ينتظرهم أحد

لم يرأف لوجعهم أحد

فلتمل أذنيك لهمسهم (يارب).

ميّز مراحمك يا مخلّص المتكلين عليك

وبظل جناحيك استرهم

يا من تأتي مع السحاب، وتنظرك كل عين.

نحن الزائغين عن الحق في وادي العميان

وأنت هو ألف وياء هذه الحياة.

يا بداية كل شيء، والنهاية لكل شيء.

الأول لكل شيء، والآخر لكل شيء.

الظاهر لكل شيء، والباطن منه.

أن يشتاق المرء لأبيه يعنى أنه متعب من كونه لايزال يمشي وحيدًا في نفس الطريق

إلى روح والدي

في البداية

«لا تكسر غصنًا بإمكانك أن تصعد به إلى الأعلى»

قط مُشرد وفأر مُجهد

لنقل أنه يقضي حياة القط "بوتش"، ليس أكثر من قط مشرد ومتمرد كسلالة "Blue Russian"، يبحث عن فأر يمارس عليه حكمته الصباحية، أردوازي مزرق كالغرغرينة ويدخن على الدوام، يرتدي سرابيل مجعدة وسخة تنبعث منها رائحة زبل بقرة مريضة، ولا أعرف في أي زريبة من زرائب الجيران بات ليلته الفائتة، عصب رأسه بمنديل حين قرر أن يصلب قامته المتهدلة فوق رأسي وأنا أزرعه بين أكياس الزيتون وأصائِصه البلاستيكية.

فك كأسه المحببة من مشبك سرواله، دس إصبعه في مقبضه المصنوع من "الستانلس ستيل".

آه، ليته تمسّك بزوجته كما يتمسّك بذاك الكأس لما كانت قد ضاعت منه في المحاكم بحثًا عن ثمن لتلك السنين الزائفة التي انقضت بجواره.

صببتُ له كأس شاي ساخن ثم أكملت عملي، تدحرج بارتياح على تلّة ترابية بجانبي وهو يرتشف كأسه ويمجُّ على سيجارته بنهم، راح يراقب بوجهه المزرق والهادئ جبيني المتفصّدة عرقًا قلب ظهره إلى الأرض، ربط عقب رأسه بيديه وحوّل عيناه للسماء، بصق نخمة علقت في صدره، ثم تدحرجت عيناه خلسة نحوي كأنه يعرف كيف لقرفه أن يدفعني للحديث. بالفعل أعاد لي فعله تدوير السؤال المعتاد الذي يطرحه كل من جلس معه ممن يعرفونه من سكان هذه البلدة.

لما لا تصبح رجلًا منتجًا بدل طوافك اليومي بحثًا عن صدقة في جيوب كل هؤلاء الجوعى؟

بالنسبة لهذا المشرد فالعقل مكيال ثلثه فراغ وثلثاه تغابي لذا؛ هو في العادة يصمت أو يتغابى مبدلًا الحديث باختلاق حديث آخر، لكنه هذه المرة استمر في الارتياح، ثم على غفلة تحوّلت الابتسامة المنطبعة على وجهه الحليق ضحكة كبيرة ومتواترة.

حلّ فراغ لطيف بيننا، ثم عاد وانفجر ضاحكًا مرة أخرى، انقلب مجددًا على ظهره، تحسست يداه خاصرتيه لفرط ضحكه، فانتقلت لي عدواه، وحين هدأ كلانا رد متعبًا وقد سالت عينيه بالدمع:

- وكم تجني نهاية اليوم من دورة حياتك المملة هذه؟ ستقول بتكبّر: "إنه إنتاج سنوي" وأنت تعرف في داخلك أن ميزان فائدته خسارة أكثر من كونه ربحًا.

اعتدل على قائمتيه، حمل إبريق الشاي، ملأ كأسه مرة أخرى، ألقى إليّ نظرة ماكرة ثم عاود الحديث كمن يختتم حكاية قديمة.

- سأسمع نصيحتك وسأكدح مثلك كالبغل، وأنا أعرف أنه سيكون بلا أي فائدة تُرتجى لكن حين تجيب على أسئلتي: هل سددت ديونك؟، هل تشعر بارتياح حيال ما يجري بداخلك؟، هل حققت ما كنت تصبو إليه؟، ممم، لا تقدم أي جواب، لا أريد ردًا، لأنك لو قمت بسؤالي عن كل ذلك لقلت عن نفسي: نعم؛ فعلت كل ذلك، هل تقوى على الإجابة أنت؟ لن تقدر.

حاولت لملمة كرامتي المهدورة، لويت عنقي بحركة ساخرة، ولربما خائبة ثم قلت مجربًا الهروب:

- الله أعلم.

رد بثقة:

- والعقل يعلم أن معيار الراحة والنجاح هو الإنتاج الملموس، النتيجة لا الكدح والجهد، لا التعب لأجل التعب.

قطع حديثه، خطا مبتعدًا يوزع ابتساماته على العابرين، وبقي الفأر المُجهد يملأ التراب بلا أي فائدة.

***

نجوى الطيبة

في الحقيقة إن أرذل الناس سكنوا في ذاك الحي، في ذاك الركن الذي مكثت به نجوى الحلوة قبل بضعة سنين، حتى كانت مفخرة ذاك المكان وركنه الفريد.

حين حطت مع عائلتها هناك كانت لا تزال دقيقة العود وواهنة مثل عظاءة في غابة، لكن خلال مدة قصيرة سرعان ما نبتت وتلوّت على مدراج الأنوثة، إذ اشتعلت الحياة في خديها المتوردتين، وباتت بيضاء مشدودة الجذع، هيفاء القامة كالوتد حتى لطف جسدها ودق، كما كانت تعرف كيف ترتدي لباسها بنمط يجعل ثيابها تبرر فتنتها النائمة تحتها، وهو ما كان يحرك ميول ود الذكور نحوها كلما عصفت بساقيها الحي.

في ذاك الحين عرفتُ حقًا ماذا يعني أن يقول الأقدمون في حينا أن الفتاة بسبعة وجوه. لكنها لو كانت تعلم أنه وبفضل وجوهها السبعة البهية تلك ستتبدل حياتها أعتقد أنها كانت كتمت جمالها وما فردت جناحيها الملونتين في ذاك الحي.

فحين تسير في الحي تتبعها ألف عين، ويسيل خلفها لعاب الشبان والشيوخ، حتى بات منزل والدها، (وهو رجل متعظم الفكين شبيه الجيفة)، مقصد الفتية ممن باتوا يزورونه كرمى لخاطرها، حتى ينهبوا نظرة من وجهها الممراح وابتسامة من برعم فمها المتورد، إذ غالبًا ما تعتاد الفتاة الجميلة التبسم في وجوه الشبان الطامعين.

تركت المدرسة باكرًا فتحمّلت أعباء أن تكون عاملة في الحقول والمزارع، تتحسسها أيادي الشبان اليافعة ممن يعملون معها. في وقت كان لها علاقة بشاب من أهل الحي، شاب أصهب كثير الحركة والنط والكلام، وحين نهب منها ما يروم من زهرة شبابها و علم أنها تعلّقت به لدرجة عدم القدرة على الفكاك منه كان يتفاخر بطردها أمام أقرانه، كما كان يسيل لعاب الفتية حين يتحدث أمامهم ويطحن فكيه بسيرتها والحديث عن مفاتنها حين كان يضعها في حضنه في ليلة حارة. مع أن العاقل حينها يعلم حجم مبالغته في الحديث كأي صبي أرعن.

حين ملّت حبه دفعها والدها البائس لتتزوج من رجل بالغ موسر الحال، لكنه كال لها الشتيمة وسوء المعاملة فتزوج بأخرى. إلى أن عادت إلى بيت أبيها مذلولة ومُهانة في حي أكثر ما تزيغ فيه عيون الرجال إلى امرأة بلا رجل، امرأة خبرت الزوج وحرمت منه.

في تلك الأثناء صدف أن آب عجوز كويتي إلى الحي، باعتياد الزيارة كل عدة سنوات، باحثًا عن صبية معدمة صغيرة وقاصر ليطفئ سيجارته في مرمدتها، ليتركها بعد وقت قصير إلى آخر من ملّته وشاكلته، تمامًا مثلما اعتاد كُثر في تلك البقاع العربية أن ينظروا إلى نسائنا. وكأن بلادنا في تلك السنوات خمّارة كبيرة وبيت دعارة كبير لشبان وعجزة خليجيين يتمخطوا بتلك الصغيرات الجميلات ويرحلوا.

علمتُ فيما بعد أن "نجوى" زوّجت لشاب آخر، سعودي الجنسية، إذ كانت "نجوى" حينها حديث المنطقة. قدم ذاك الشاب الذي يرتدي ثوبه الخليجي في صيف ذاك العام، وكأنه أراد أن يقول للجميع هنا أن ثوبه الخليجي الأبيض هذا هو هويته وثرائه. بالفعل؛ فمزاج والدها يميل لتلك الاثواب العارية. فقام ذاك الشاب بنقلها إلى مدينة مجاورة، حتى قيل أنه تناوب على زواجها مع صديق له في ذات المنزل. وحين انتهيا منها عادت إلى منزل والدها ذابلة شاحبة ومُهانة.

أصبحت حين تسير في الشارع تُرمى بالبصاق والشتيمة من نسوة في الحي، وبات يُربط مؤخر اسمها بكل صنوف العبارات الخليعة. أما والدها فله وجهة نظر مختلفة حول شكل القوّاد في مجتمعنا، فقد حمل السلاح في وجه رجال من القرية حين هددوه لأفعاله تلك، وبرر ذلك بأنها لا تخرج عن شرع الله.

تركت عائلة نجوى الحي، ودّعت هي الأخرى صديقاتها سرًا، وانتقلت إلى العاصمة. هناك يتشابه الجميع، الشريف والفاجر، الصحيح والسقيم، السياسي والقوّاد، ما يعني أنها ستمارس المتعة كأحد ضروب الدفاع عن الوطن وسيصفق لها بحرارة، ستُحمى من العرف والعادات وسيدعم القانون تنقلها من حضن عجوز إلى حضن آخر بمنحه لها بطاقة "مومس".

في تلك السنوات رجال كُثر في الأرياف السورية استسهلوا أن يعملوا كقوّادين لأجل دراهم خليجية قليلة يكفون بها جوعهم الروحي. وما إن يحاربوا حتى يلوذوا بالعاصمة، لأن القوّاد في بلادنا رجل يدعم الاقتصاد الوطني وينشّط العرف السياحي ويمثل رمزًا قوميًا، لهذا تتعامى عنه الأجهزة الوطنية، بل وتحميه.

هكذا بدأت الدعارة في بلادنا، استسهلوا القوادة كخطة لدعم المواجهة ضد العدو وكإستراتيجية حزبية للتآخي العربي، لكنهم لم يدركوا أن البلاد التي تجد في منابت أطفالها مشاريع سياسية بلاد ميتة وآيلة للسقوط.

ففي مثل تلك الأحياء التي عاشت بها "نجوى" خرج مشاهير تلك البلاد وترعرعوا، حتى باتوا مفخرة هذه الأمة. مع ذلك دائمًا ما نقول أن الطيبون ينجون في النهاية، وأنا على يقين أنها كانت فتاة طيبة وآمل أن تكون قد نجت.

***

عبيد ينصحون عبيدًا

أثناء فوز مجموعتي القصصية الأولى بإحدى المسابقات الثقافية في مصر أبلغتني إحدى دور النشر أنها ستتكفل بإصدار المجموعة على نفقتها بشكل كامل، وكأي كاتب هاوٍ كانت فرحتي كبيرة، حتى بلغت ضحكتي حدود أذني، لكني طوال تلك الفترة أخفيت هاجسًا مرًا حين طلبتْ مني الفتاة اللطيفة في دار النشر مساعدتها في تسويق العمل عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

على الهاتف سارعتُ لفضح مشاعري ومخاوفي أمام صديق تتحكم به زوجته، فطلب أن نلتقي ليفرغ لي نصائحه، رغم أني أعرف أنه من الصعب أن يمنح العبيد نصائح لعبيد آخرين، إلا أني حملت مخاوفي وعبوديتي وذهبت إليه، انزوينا في غرفة ضيقة شحيحة الضوء نتهامس سرًا، فكان سؤاله الأول لي:

- كم سأجني من المال؟

جراء ذلك العمل، قلت له كشخص بات يمتلك الخبرة:

- ومن سيشتري كتابًا يتحدث عن عبيد مملين كسالى كسكان هذه البلدة؟

نفث دخان سيجارته المخلوط برائحة فمه العطنة في وجهي، ثم قال بسكينة المستبصر:

- أقنعتني.. بسيطة، عش اللحظة.

لم أفهم وجهة نظره، لهذا سألته:

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني عش ذاك الشعور.

اعتدل في جلسته، أطفأ سيجارته في المرمدة، ثم تجهز للتوضيح عن وجهة نظره أكثر:

- تخيل نفسك فتاة جميلة، وهذا صعب الحدوث وسط هؤلاء الممحونين ممن تناولهم كتابك غير ذي القيمة بالنقد والسخرية. لذا تخيل نفسك كفتاة ضعيفة واهنة تمشي الهوينا في حي شرقي مجاور خرج من حرب أهلية منذ أيام.

أغمضت عيناي:

- نعم؛ تخيلت، وماذا بعد؟

- ثم تمكن بضعة شبان قذفتهم الحرب، وحولتهم لعاطلين عن العمل، ولا يمتلكون ثمن علبة تبغ، من الغدر بهذه الفتاة المغرية، فجرروها الى مكان مقطوع، وهناك تناوبوا على اغتصابها، وحين حاولت المقاومة أدركت أنها عاجزة عن تغيير شيء، وأنها لن تتمكن من ردعهم، لهذا تقرر أن تعيش اللحظة وأن تستمتع.

- يا لها من تخيلات داعرة لئيمة!

- فكر في الأمر من زاوية مختلفة، إن لم تكن ترتجي مالًا من هذا الكتاب فإنك لن تتمكن من مقاومة اغتصاب أبطالك العبيد لك في هذه القرية، ولن تتمكن أيضًا من وضع حجاب بينك وبين مخبري الحكومة بعد الحرب، عش اللحظة واستمتع يا ولد، عش شعور الشهرة والانجاز ورعشة الرغبة، وشارك في تسويق عملك لأنك لن تمنع قطر العار من العبور.

***

امنح عجينتك الوقت

مجعد كلفيفة تبغ معدمة ألقياه على خشبة الإعدام، شاحب غرز عيناه يراقب ثلاثة أعواد مشانق منتصبة كالأشباح، وفوقه في الجو الدبق بالخوف والاستبداد علا المكان هتاف واحد وجاف:

- هو أولى الناس بالصفح، من يصنع الخبز لا جريمة له.

إنه صوت الشعب، أما لسان السلطة الطويل والرابض خلف الحصون، من اعتاد الخبز السميك المطلي بالزبدة فقد صدر حكمه الجائر على عجل.

لا شهود ولا أدلة على براءته، لم يكن يعلم يومًا أنه في سويعات قليلة ستنقلب حياته، وأنه سينام مزارعًا، خبّازًا، مجهدًا يفلح الأرض ويقلب التراب براحتيه في زراعة الحنطة بحثًا عن لقمة عيش لأولاده، وسيصحو كأخطر مجرم عرفه تاريخ البلاد.

ثخين يحمل كرشه أمامه، رفع كبير الظالمين يده عاليًا ليقرأ الحكم أمام كروش متهدلة على الظهور الحانية، وببطء وعلى مقتل زعق:

- الإعدام.. شنقًا.. حتى الموت.

بضع كلمات هي عقاب بحد ذاتها، يموت فيها لدى المذنب كل إحساس بالحياة لفور سماعها. ألا يمنحنا العلم موتًا رحيما لأولئك العصاة يا الهي!؟ هل اختيار الطريقة بات رفاهية المعذبين على هذه البسيطة؟، الشعب يريد حرية اختياره لموته، الطريقة وليس الموت هو ما يؤلم.

مفلسون أتعبتهم ظهورهم تراخوا في المكان، هوموا رؤوسهم المقمّعة كحبات بامياء جافة بانتظار التنفيذ. ابتسم كبير الظالمين ثم نبح مجددًا:

- من مكرمات الحاكم ونبله، أنه يحق لهذا الخبّاز أن يختار على أي من المشانق الثلاثة سيموت.

تأبّط الحراس ذراعي المسكين، جروه إلى عود المشنقة الأول، لفوا حبله الخشن على عنقه، ثم سألوه إن كان يود الموت على العود الأول، فنهبته الذاكرة إلى الوراء، والده معصوب الرأس، مغبر بالطحين في مخبزه وسط البلدة يعطيه درسه الأول "امنح العجين وقته"، عاد من ذاكرته بحمله الوفير فازداد صلابه، فطلب من الحراس أن يجرب العود الآخر، ثم رجاهم أن يمنحوه وقته، ثم نُقل إلى العود الثالث، وحين استوت عجينته صاح أحد الحراس من بعيد يرفع يده عاليًا بكتاب، وشوش الحارس الجديد في أذن كبير الظالمين، فتح الكتاب المرسل ثم صاح على الملأ وأذاع في الناس أن الخبّاز بريء، فألغى الحكم.

ومنذ ذاك اليوم والناس تردد في سنين العجز والجوع والحاجة:

- بين عودٍ وعود سيفرجها ربٌّ معبود.

***

متفرغ للحصاد والأعمال الأدبية

يُروَى في قريتي أن عائلة "أبو زكّو" الكسولة تكره موسم الحصاد والحصيدة، وفي ذاك العام كانت العائلة مضطرة لزراعة القمح لتأمين العلف لدوابها، فحدث أن زار القرية وافد غريب، حطت رحاله أمام منزل "أبو زكّو" يسأله البحث عن عمل، سأله "أبو زكّو" إن كان يُجيد الحصيدة، فقال بثقة:

- بكل تأكيد.

فاقترح عليه أن يمكث بينهم بمأكل ومشرب ومسكن طوال العام، لحين حلول موسم الحصاد على أن يتعهد له بحصاد موسمه، فوافق الغريب المشرد بلا اعتراض.

مضى العام سريعًا، وحان وقت الحصاد، ذهب "أبو زكّو" إلى الحقل نظيفًا أنيقًا يرتدي مريولًا أبيضًا، وبات الجميع يراقبه بفرحة المخلّص، أمام الحقل الأصفر الطويل خلع نظارته بهدوء ووضعها في جيبه، ثم أخرج من عبّه ولاعة سجائر أشعلها ورماها وسط السنابل اليابسة وهرول هاربًا.

تقفز تلك الحكاية الشعبية على ألسنة سكان هذه القرية عند كل موسم حصاد، كنوع من المؤانسة الداخلية لتبرير حقدهم على الحصيدة.

وهذا العام عزمت على أن أنهي حصادي بوقت باكر حتى أتفرغ لأعمال أخرى. لهذا استيقظت صباح البارحة نشطًا على غير العادة، فقد قررت أن أبدأ نهاري بلا كسل، أديت صلاة الفجر وحملت عدّة الحصيدة وفاجأت حبات الندى قبل أن تهرب مع بزوغ الشمس.

القمح في كل مكان، أصفر، مائل بسنبله يدعوك لقطافه. من أين أبدأ بهذا البحر من العيدان الحانية يا عالم، من هنا، لا بل من هناك، إني أغرق تحت السنابل. تنفست الصعداء وقلت في نفسي الحصاد مثل مباشرة أي عمل أدبي، باشر من حيث أنت، وبالفعل بدأت أدندن أغنيتي الهابطة المحببة "ليه بيداري كده"، وطقطقة العيدان تحت المنجل كموسيقى كلاسيكية تناغم أغنيتي.

تحت البيدر نط بالقرب مني أحد الرعاة، رمى جثته على طرف البيدر ثم تناول عودًا وراح يخلل به أسنانه، يضع طاقية مدورة كبيرة كتلك التي يرتديها رعاة البقر الأميركي. قلت مازحًا:

- الفزعة.

رد بملل:

- لو فيا خير ما رماني الطير.

ألقى حواليه نظرة فيها قرف ثم سألني لما لا أجلب عمالًا وأريح رأسي كما يفعل أغلب سكان القرى المجاورة، هنا استعرت عبارة قديمة لجدتي "اللي ما بينبع بيخلص"، وهي عبارة لشحذ عزيمة شخص مفلس. لكنه ظلل راحة يده فوق عينيه وراح يبعث نظرات بعيدة لسهم القمح، ثم قال ساخرًا:

- عن أي نبع لن ينضب تتحدث جدتك، القمح في كل مكان.

أنا مؤمن مثله تمامًا أن الحصيدة لا أخلاق لها، وأن موسم الحصاد في هذه البلدة التي لا تزال بدائية فيما يتعلق بوسائل الإنتاج تدفع المرء ليشعر بالعبودية، لهذا حين راح يتحدث عن وجهة نظره تلك لم أتحول لسوري أصيل يعترض لأي شيء يسمعه، لأنه قال ما ينازع نفسي الكارهة للحصيدة:

- ملكة النمل تعيش حتى عمر الثلاثين سنة، والنملة العاملة تعيش من سنة إلى ثلاث سنوات كأقصى تقدير، أتعلم لماذا؟ لأن الملكة لا تُتعب نفسها في جني الطعام، هناك عبيد مهمتهم تأمين ما يستلزم لها من طعام، لهذا تعيش هي أطول وتموت العاملات من التعب بفارق سنوات كبيرة عن الملكة.

أكملتُ حصادي وأنا أستمع له، لم أخبره أن حديثه أعجبني، ومع ذلك استرسل كاشفًا عن ثقافة جيدة، بدأها بسؤال قصير:

- هل لك أن تخبرني بأسماء مثقفين سود مشهورين في أوروبا وأميركا؟

فكرت قليلًا؛ ثم خطر ببالي أشخاص ك "سدني بواتييه"، "جيمس جونز"، "باول وينفلد"، "دنزل واشنطن"، "محمد علي كلاي"، "ويل سميث"، "جيمي فوكس"، "دانييل

كالويا"، "مالكولم أكس"، "ديف تشابيل"، "كيفن هارت" وغيرهم، رفع يده هنا واستوقفني ثم أكمل:

- لكن، جميع هؤلاء من "أفريقيا"، كان أجدادهم عبيدًا مثلك الآن، قام الأوربيون الشقر بشحنهم في شاحنات، وعلى ظهور الحمير، وعلى متن القوارب من "أفريقيا" إلى "أوروبا" و "أميركا" ومن ثم تم تحويلهم وأحفادهم إلى عبيد؛ كي يعملوا في حقولهم، إنهم شعب فهمان يشغّلون رؤوسهم فقط، والآن بعد أن تحرر الأفارقة في تلك البلدان استعانوا بنا نحن العرب، نحن الهمل، أتعتقد أنهم غير قادرين على إيقاف مد الهجرة إليهم، إنهم يحتالون، يريدون شبابنا ليحولوهم إلى عبيد، في الزراعة والصناعة والبحث العلمي، إنهم يسرقون مثقفينا ويحلبونهم كما أحلب بقراتي. لم يتغير شيء منذ القديم حتى الآن، ما تغير هو أن الجنازير التي كانت توضع على أرجل وأعناق الأفارقة رُفعت وباتت توضع اليوم على آرائنا و على أدمغتنا.

توقفتُ لسماعه عن العمل، رميت المنجل من يدي ونظرت إليه بوجه متعرق، أغرقتني ابتسامته الكبيرة، ثم قفز راكضًا وراء بقراته اللواتي غادرنّ كرمه مبتعدات.

في البعيد قليلًا فوق رجم من الحجارة صاح كمن شعر أنه أفسد عزيمتي عن العمل:

- هيه أيها العبد الأسمر، تقول جدتي أن التعب وسخ تجلوه الراحة، أكمل عملك وارضى بعبوديتك، تشاو.

حب في الريف

البارحة في جلسة ود سألتني زوجتي عن علاقاتي السابقة إن وجدت، فتنهدت بمخاتلة والتزمت الصمت، وهي حيلة قديمة ورثتها عن أجدادي المصدومين عاطفيًا، نفتعلها حين لا نلوي على شيء، ولا نرغب في أن نتعرى عاطفيًا أمام من نحبهم. أو بمعنى أفضل حين نجد جعبتنا فارغة عاطفيًا من العلاقات القديمة ونرغب في أن نخاتل في ماضٍ زائف.

أنا ابن الريف، وفي الريف إقامة علاقة عاطفية فعل متعب في العموم، والشاب الريفي البسيط ما هو إلا قصر عتيق، ومهجور التهمته الطبيعة والطحالب، لكن ما إن حككته بالحب حتى عاد لعهده القديم. أما بالنسبة لي أجدني لستُ جيدًا في هندسة العلاقات العاطفية، لهذا السبب نَمتْ حولي طحالب وخيمت عناكب.

الشيء العاطفي الوحيد الذي كنت أجيده أيام المراهقة هو كتابة رسائل الحب للآخرين في المدرسة، تلك التي كانت تبدأ ببادئة التسعينيات الرومانسية المشهورة من مثل "تحياتي لمن دمر حياتي" أو "سلام سليم أرق من النسيم يأتي ويروح إلى القلب المجروح" وسواها من مفردات التسعينيات العاطفية المتداولة في العموم.

الفريد في الأمر أن أغلب تلك الرسائل كانت تصل لفتاة تدعى مريم، بشكل مباشر أو غير مباشر، الجميع كان يحب تلك الفتاة النحيفة ذات الغرّة الناعمة والفم الوسيع. حيث من السهولة عليك حينها أن تتعثر في حبها من النظرة الأولى، أو كما تحبذ "أحلام مستغانمي" قوله منذ ما قبل النظرة الأولى. فهي تجيد مهنة جمع الشبان كما كنت أجيد في صغري جمع المفاتيح القديمة في تكة سروالي. فما أن يراها أحدهم حتى يعاني ذاك الإحساس المعروف جيداً لمن هم بوضع العبودية، ذاك الإحساس الذي لا يعيه سوى من سقطوا في الحب. آه، لكم تمنيت حينها أن أكون مفتاحها الصدء الألف.

علمت من قريبتي في المدرسة أن مريم تريد أن تراني "الأجل موضوع مهم"، رمت قريبتي تلك الكلمات أمامي ثم أقفلت مغادرة، ولم توضح أكثر من ذلك. التقطتُ كلماتها من على

الأرض، شذبتها من غبار الطريق وكررتها في رأسي عدة مرات، وقلت في نفسي بما أن الموضوع مهم فلا مهم لدى مريم أكثر من الحب، آه أهلًا بك يا حب.

عدت للمنزل مختلّا كمن تناول علبة كلور على الريق، نصبت المرآة على الجدار، وأخذت أراقب جمالياتي أمام هذا الاختراع الذي كنت أتحاشى الاقتراب منه طوال تلك السنوات، فالمرآة ولوقت طويل كانت بالنسبة لي أكثر اختراع أرهقني ولا أحبذ استعماله، أما اليوم إنها المرة الأولى التي أرى فيها كم هو حلوًا أن يكون الشاب أسمرًا وبأنف طويل، فكل الأغاني من "سميرة توفيق" وحتى مطربات جيلي "كنجوى كرم" جميعهن تغنّين بالأسمر، فأين كنت تخفي كل تلك الحلاوة يا إنسان.

آهٍ يا جاري لو تدري ما أحلا الحب، يجعلك ترى جارتك المستذئبة في وداعة حالمة، ويدفعك لتتغاضى عن سرقات كلبتك "كوكو" لأحذية أولاد الجيران بمرح، ويبث في كتفيك المهزومتين رغبة في النصر، لهذا وحدها الأشجار العارية تغريني وتدفعني لأقول شعرًا حين أحب.

كان من اللازم أن أفعل شيء، أي شيء، لهذا صرفت كل ذاك اليوم أمام المرآة، وحين أقول كل اليوم يعني كله، لذا وقفت أبتسم لنفسي، أتحدث مع وجهي الأسمر الحلو في بروفة مسبقة، أغيّر من طريقة نظراتي، أبدّل من طريقتي في المشي، أضع يدًا في جيبي وأجعل الأخرى حرة للهواء، أرفع حاجبًا وأنكّس آخر كنوع من اختيار وضعية لأكون بها جذابًا أمامها غدًا.

في صباح اليوم التالي استيقظتُ الشمس باكرًا حين تناولتُ ثيابي المرتبة من تحت فراشي، فالفراش هو مِكواة الريفيين، ثم نظفت أسناني بالماء والسكر ثلاث أو أربع مرات ولربما أكثر من ذلك، دهنت شعري بزيت الزيتون، وخلقت غرّة جانبية لم أعتد على فعلها قبلًا.

على الطريق الريفي الضيق الواصل إلى المدرسة الكل يصفّر ويلقي حولي كلمات، كلمات ليست كالكلمات، أحدهم ينغّم:

- بست يا حلو.

وآخر:

- صباح الخير يا أنيق.

وثالث:

- عزا أي حمار اليوم حتى قمت بترتيب نفسك؟

ورابع وخامس، أما أنا الحلو والأنيق المُرتب فلا أمنح لهؤلاء القرويين العاطلين عن الحب أية أهمية.

جاءت "مريم" في موعدها تمامًا لكن لم تأتِ لوحدها، تهادت بين رفيقتيها السمينتين، قلت في نفسي إنها تستقوي على خجلها أمامي برفيقتيها، لكنني لم أحسب حسابًا لهكذا موقف، فقد برمجتُ نفسي لمحادثتها بمفردها، ماذا سأجيبها أمام رفيقتيها الآن إن قالت إنها تعثرت بي عاطفيًا، أو أنها لم تنم ليلتها وهي تتدرب على الاعتراف بما تخبئه تجاهي؟، ليس مهمًا كل ذلك، سأقول لها أفكر في الموضوع وأخبرك لاحقًا.

اقتربتْ أكثر، القت ابتسامتها الجميلة المسروقة، كم كانت عيناها جميلتان!؟ غرتها الصدئة. وبلا مقدمات قالت:

- هل ترى "حسن"؟، هناك يستند على الجدار، أريدك أن تخبره كم أحبه يا زميل.

***

طرافولطا

حين يُسأل العاطلون عن العمل عن اسم مسؤول العمال في المشتل الحكومي الواقع على طرف القرية، كان العمال هناك يجيبون بإسهاب:

- إنه "طرافولطا" صاحب برميل المازوت ذو البركة.

هذا ما قاله لي أحد العمال في ذاك المشتل قبل عدة أشهر حين أُذيع في القرية عن رغبة الحكومة التعاقد مع عدد من العاطلين عن العمل بصفة عقود مؤقتة لثلاثة أشهر، وحينها استدرت للذهاب إلى مكتبه تمايل من بعيد شبح رجل هزيل مائل إلى جانبه الأيمن.

فغمغم العامل حين رآه:

- ها قد ذكرنا القط.

ثم حمل مجرفته وأخذ يعمل بجهد أكثر، ومثله فعل باقي العمال. وما أن حطت رجله في مشاعنا حتى انطلق "طرافولطا" مسؤول العمال كالسهم وأمسك عامل يافع اختبئ في جحر بين صخرتين وراح يدخن كفأر صغير، أصيب الشاب بالهلع، فشد المسؤول يده للوراء كمن يسحب نبلًا في قوس وأطلق جمع يده في وجه ذاك اليافع حتى سقط على الأرض، فركض الساقط هاربًا تركًا لعمل، وفي البعيد صاح بعصبية كلامًا لا يستوجب ذكره هنا.

عرفت حينها لما يلقبه العمال ب "جون ترافولتا" فلديه قبضة لا تخطأ أنفًا وبينما وقفت مصلوبًا أراقب ما يجري، سألني سبب وجودي في مكان العمل فأخبرته رغبتي بالتسجيل في الشواغر المطلوبة، فطوّح نحوي نظرة متعالية وخبيرة من الأسفل إلى الأعلى، ثم صاح بالعمال:

- "طوم وجيري" خذا مكان ذاك الداعر في جمع حقل الزيتون، و"نفرطيطي" روحي اعملي شاي.

هناك أشخاص كثر يمتلكون عيبًا في النطق رافقهم منذ الولادة، فأفأة مثلًا مأمأمة، تأتأة، أو لثغة بأن تُلفظ (الراء) (لامًا) و(السين) (ثاءًا) كما هناك لهجات محلية في البلاد تطورت عبر أجيال فانتهت باستبدال الحروف بأخرى كأن تلفظ القاف غينًا الغين قافقًا في أماكن هنا، أو أن تستبدل الهمزة بالقاف في حواضر العاصمة مثلًا، لكن أن يستبدل شخصًا حرف التاء بطاء فهي حالة اعتقد أنها جديدة بالنسبة لي وسابقة على ظهور اللهجات المحلية في البلاد كما لدى هذا المسؤول الجاف غليظ القلب.

جلسنا في مكتبه حين أخذ يسجل بيانات الشاغر الوظيفي كي يرفقها مع الطلب، وحين أخبرته أني عملت سابقًا كمدرّس وزاولت الصحافة بشكل بسيط، وأنني امتلك إجازة جامعية، ترك القلم وأسند رأسه بيده وراح ينظر إليّ كشامت ثم قال بتهكم مع أنه يعلم أني أبحث عن أي فرصة عمل:

- مش طالبين مثقفين، هون بدنا عمال.

في تلك الأثناء دخلت "نفرطيطي" الصبية السمراء الصغيرة، كانت كفرعونة مصرية تم تحنيطها باكرًا، فبدت كهاربة من كتاب التاريخ، أو هذا ما يحب أن يطلقه عليها، وقد حملت الشاي، وضعته أمامنا ثم أخبرته أن "طوم وجيري" الصبيان الآخران تركا العمل أيضًا.

لم يعطِ للأمر باللًا، ويبدو أن هروب العمال بفعل قساوته هو روتين يومي، شرب رشفة من الشاي قبل أن يصل صاحب الدكان الذي في حينا، جلس بيننا، شرب الشاي هو الآخر، وأخذ يطالب الرجل بدين قديم بطريقة لطيفة، فأخذ يعدد له صاحب الدكان فوائد وظيفته ضاحكًا، وذكّره بأنه (موظف قد الدنيا)، وأنه تمكن بفعل راتبه ووظيفته من إعادة إعمار منزله، واشترى دراجة نارية، وغاطس لبئره الخاص، ثم ختم بالقول:

- ولابس طاقية بخمس تالاف ليرة مين قدك؟

ضحكت وضحك هو الآخر، أخيرًا رأيت هذا الوجه الجاف وهو يضحك. قال وهو ينظر إلي بانفراجة وسماحة غزت وجهه:

- البَرَكة..، أهم شيء البركة، منذ سنتين اسطلمت "استلمت" من الحكومة برميل مازوط "مازوت" خاص بالتدفئة، قام بكفايطي "بكفايتي" لعام كامل، رغم أن العام الفائط "الفائت" كان ذو شطاء "شتاء" قاسي، ومع ذلك قمطُ "قمت" بمنح عديلي عشر لطرات "لترات" لسيارطه "السيارته" حين كان المازوط "مازوت" مقطوع، كما أعطيطُ "أعطيت" جاري

عشر لطراط "لترات" ليضعها في محراثه حتى يكمل فلاحة أرضه، وفي نهاية فصل الشطاء "الشتاء" قمطُ "قمت" بمنح الباقي لأخي كي يسقي زروعه.. البركة، أهم شيء البركة.

إنها قصة يرويها باستمرار حتى زهقها وملّها الناس منه.

غادرنا المكان وعلى الطريق قال لي صاحب الدكان وهو لايزال يضحك:

- بالتأكيد البركة، وبفضل البركة طلبت زوجته الطلاق ألف مرة لأنه كان يقضي شتاءه ملتحفًا ببطانيته لأنه باع المازوت لإخوته وجيرانه على أن يصرف قطرة واحدة من برميله.

فليس عبثًا إذًا أن يقال عنه "طرافولطا صاحب برميل المازوت ذو البركة".

***

أولاد المُتسخة

اللصوص لدى "تشسترتون" لا يحترمون الملكية الخاصة، إنهم لا يشتهون سوى أن تصبح ملكية الآخرين لهم لكي يتاح لهم احترامها أكثر، عايشت ذاك الاحترام مرارًا في حياتي مثلكم جميعًا، عند معتمد الخبز ورئيس الجمعية الفلاحية ومحصل الضرائب وموظف البلدية وعند كثير من جيراني.

ذات مرة في مرحلة التدريب الجامعي، جلست وصديق لي متعبين على سريرين متجاورين في مهجع كبير تكدست فيه رائحة الرطوبة والأسرّة الحديدية بعضها فوق بعض، جميع الطلاب كانوا منشغلين في يومهم الأول في ترتيب أشيائهم وحقائبهم، في حين أخذ شاب شامي، أبيض وناعم، يطوف على الأسرّة بصوت شبه باكي يبحث فيه عن بطانيته التي سُرقت أثناء انشغاله بنقل أغراضه.

بدا ضعيف، هش و فقير، لكنه كرر أمله بدون يأس وعاد باحثًا مرة واثنتين وثلاثة، و في المرة الأخيرة صَعُبتْ حالته على اللص، أو لربما أراد اللص التخلص من نواحه ليرتاح قليلًا حين جلس فوق أحد الأسرّة وقد نادى على ذاك الشاب المنهوب وأخبره أنه يمتلك بطانية إضافية ولا حاجة لنواحه بعد الآن، ثم سحبها من تحته ومنحها له، حاول الشاب المنهوب دفع ثمنها له لكن الآخر رفض قبول المال، وبدل ذلك طلب منه أن يتبرع بثمنها لأحد المساجد والدعاء له هناك بظهر الغيب، شكره ذاك الأبله مطولًا، وقد بلغت فرحته من تلك الإنسانية حدود أذنيه.

دحرج صديقي نحوي نظرة كئيبة والذي كان يتابع مثلي ذاك المشهد الصادم ولسان حاله يقول "كيف تشكر الضحية من يسرقها؟!"، وبلا وعي غمغم في شوارعية قائلًا:

- يا ابن الوسخة.

هذا كل ما قلناه دون أن نفعل شيء لإصلاح ذاك الموقف حينها وإنقاذ أحدهم كنا شهودًا على سرقته.

للإسبان قول شعبي جميل "ما يشفي الكبد يجعل الطحال مريضًا"، ويقابله لدى السوريين قول أجمل "إن سكت المرء انسطح وإن تكلّم انفضح. وبما أننا أمة خوّافة ولا زالت تخاف من قول الحقيقة في وجه أولاد "الوسخة" ممن ينهبوننا كل يوم، تبقى الكتابة عنهم هي وسط بين نقيضين، ما بين المرض والشفاء، وما بين السكوت والكلام، هي نصل حاد بين اللصوصية والشرف.

فمنذ القديم أشخاص كثر حولنا لم يتعبوا من نهبنا، ومنذ القديم وحتى إلى مالانهاية دائما ما نشكر اللصوص على سرقتهم لنا وعلى ركوبهم ظهورنا، منذ القديم وهم يأخذون قمحنا غصبًا من حقولنا قبل أن يجف عرقنا ثم يبيعون لنا ربطة خبزنا ونحن نشكرهم، منذ القديم وهم يسرقون بقرتنا ليبيعوا لنا حليبنا ونحن نشكرهم، منذ القديم وهم يسلبوننا أصواتنا المبحوحة و ينهبون شبابنا وعمرنا الشقي الذي مضى بلا حسبان، منذ القديم وهم يأكلون لحم أكتافنا ونحن ندفع الحساب، منذ القديم وهم يسعون لتهريبنا كبضاعة محرمة دوليًا ومن ثم نشكرهم في عرض البحر على موتنا الأليم، منذ القديم و نحن من يتبرع بثمن كرامتنا في دور العبادة والجمعيات الخيرية على حساب شرفهم الرفيع المُتسخ.

***

الحياة الهادئة نعمة

لدي صديق في قرية مجاورة يعمل حرفيًا (كالبغل)، وليس في هذا الوصف ضغينة، فهو عمليًا وصف ينطبق على كل شبان سوريا بعد الحرب، فهم يمنحون يوميًا جهدًا أكثر من جهد البغل حتى ليحصلوا على رغيف خبز.

حين زارني هذا الصديق كان قد خسر الكثير من صحته، فبدا ناشفًا كعود يابس، كما صُبغت وجنتيه بالكَلَف بفعل أشعة الشمس جراء عمله في الأرض، فكان مثل امرأة نازعها المخاض، والأهم بدا على وجهه علائم الاكتئاب، أمتلكُ حولي أصدقاء كثر من هذا النوع الزاحف ممن لا يزورونك إلا حين يكونوا في أعمق ساعاتهم بؤسًا فيزيدوا بؤسك بؤسًا فوق بؤس.

علمت ما يزعجه فلم أقاطعه حين أخذ يشرح لي نشرته النفسية، إذ لم يتمكن من الفرح لجنيه محصول عامه من القمح والحُلبة حتى وقع خلاف بينه وبين جاره، تطور الخلاف إلى ملاسنة فشد شعر فلوي الأعناق وأخيرًا سقط الجار مخلوع الكتف، لم أسأله سبب الخلاف، فمن غير المهم سؤال بدوي عن سبب نزاعه مع جاره. حُلّت القضية عشائريًا بأن قررت محكمة العَجَزة في القرية تغريم ذاك "البغل" بثلاثة ملايين ليرة، أي أكثر من نتاج محصوله.

وحين انتهى في شكايته لي قال بتعب:

- أريد حلًا.

أي حل لكل هذا الخزي الذي نعيشه، لكنني لم أقل له أننا في الحضيض حتى لا أزيد في كآبته، بل كعادتي في العجز عن الإجابة صببت له الشاي وجلست ساكتًا، تعلمتُ هذه العادة من الحكومة، فهي تجيد الصمت وعدم الاكتراث لكل هذا الضجيج والصراخ من حولها، ومع ذلك فالتذمر والشكوى هي واحدة من المهارات البائنة التي أمتلكها ولا قدرة لي على طلاقها، مع العلم أني أمتلك من النِعم ما لا يمتلكه عدد كبير غيري.

لكن من المنصف القول أن الحياة الهادئة نعمة، إنها كذلك بحق، هذا الشعور راودني حين عملت قبل عدة أشهر مع صديق خمسيني في بناء الحجر، إنه عمل مرهق وشاق، تحطيم الحجر البازلتي الصلب بالمطرقة التي تزن عشرة كيلوهات وحمله لمسافة بعيدة ومن ثم بناءه. إنه أمر يدعوك للشكوى مرغمًا، مع ذلك كان ذاك الرجل يشعر بسعادة كبيرة، كان في كل ضربة مطرقة يضربها يستغفر الله، وفي كل حجر يحمله يشكر الله، دفعني الأمر لسؤال نفسي:

- من أي سماء يهبط عليه كل هذا الرضا!؟

عدت مساءًا إلى المنزل وأنا أفكر في سعادته، فكل يوم أفكر كيف سأجني المال لعائلتي، فأنا أعرف أُناس كُثر حولي يركضون والرغيف خيّال، يركضون ركض الوحوش وإن جمعوا المال كان بلا راحة؛ لذا أجدنا ننام كل يوم على قلق ونصحو على قلق.

رميت عيناي حولي بتفكر، عائلة صغيرة، ومنزل صغير، نسمات باردة جميلة من فتحة صغيرة في الجدار خلقتها قذيفة عمياء في وقت سابق قمت بتحويلها إلى شباك صغير، وفي الخارج زريبة فيها عدة دجاجات يمنحنني البيض يوميًا، وثلاث معزات يكفيان يدي عن طلب الحليب، وبقرة أعانني الله على شرائها قبل مدة، كما ليس في درج طاولتي ولله الحمد "روشيتة" طبية لأحد من عائلتي، وديوني لا تستوجب عزلة الناس ولا التفكير في الانتحار هربًا من سدادها كما فعل سوريين كثر.

كل ذلك يدفعني لأكون راضيًا وممتنًا، فهناك أشياء كثيرة لا نلقي لها بالًا هي نعمة التغابي، فالتغابي نعمة، والجار الطيب نعمة، كلب ينبح أمام منزلك نعمة، أصدقاء يرسلون لك رسائل للاطمئنان عليك بلا مصلحة أيضًا نعمة، قريب يركض نحوك حين يسمع أنك وقعت في مصيبة إنها بحق نعمة.

***

بطل الإنتاج

منذ عودته للكار وهو يتحدث معي مثل مدير تنفيذي لشركة عملاقة، لو لم أعرف أنه عاد كما ذهب صفر اليدين لقلت كلامًا ألطف بحقه.

أخبرني أنه يريد تابعًا يحشو الفراغات التي يخلّفها ركم الحجارة بعضها فوق بعض بقطع من الحجر الذي يحطمه بمطرقته، وهو فعل سهل كما قال.

وعليه ارتديت ألبستي المدعوكة بالغبار والتراب وحملت المطرقة وذهبنا للعمل، ما إن وصلنا للمكان حتى انقلب الى شخص آخر، لم يعد ذاك الجار الذي يبادلني المزاح والنميمة، وقف بوجه جامد فوق رجم من الحجارة باحثا بنظرة خبيرة عن حجر يفتته بمطرقته ثم أخبرني بنبرة المعلم أننا نريد بناء سياج من الحجر الأزرق الصلب بطول مئة متر، لم أقل له أنه ينقلب على اتفاقنا بردم هوة صغيرة في سياج وننتهي، إلا أنني فعلت ما يريد.

كان ما إن يمط طرف حنكه السفلي حتى أعرف أنه غير راضي عن عملي، وللأمانة منذ الدقيقة الأولى حتى تركت العمل معه وهو لا يتعب من لوي حنكه نحوي باشمئزاز.

من غير المهم هنا معرفة كيف كان هذا المعلم محتالًا ونزقًا كعجوز في التسعين، ولا كيف قام باختلاس أجرة يوم كامل هي حقي بحجة أنني بطيء في العمل. لكن ما هو مهم هو معرفة كيف كان مثقفا "فيسبوكيًا".

إذ يمتلك فلسفة إنتاجية واقعية، فبرأيه ألا عجب أن منتجًا يمتلك مواصفات جبارة وعملية سيتهافت عليه العملاء لا سيما في المناطق التي تعيش أوقات صعبة لكن كشركة ستكون النتائج كارثية، ويدلل على تلك القناعة الإنتاجية أنه ولسنوات عديدة اشتهرت شاحنات مثل "مرسيدس بنز" مثلًا بقوتها الفائقة وإمكانية الاعتماد عليها فيما يتعلق بمستوى السلامة وتوفير الوقود، لكن لم يمضِ بعض الوقت حتى تم إيقاف الإنتاج بسبب خسارة الشركة لأنها لا تستهلك مواد احتياطية ولا تتعطل.

لهذا وعلى مدار أيام، هي مدة عملي معه، وهو لا يتعب من اختبار أفكار تنقذ "الكوكب"؛ مصطلح الكوكب يقصد به عائلته، أي صناعة منتج مستمر أو مزاولة مهنة مستمرة تنشّط الاقتصاد المنزلي وتكون أمانًا لنا من البطالة.

لهذا وعند نهاية العمل تبين أنه كان يترك فجوات في بنية السياج الذي قمنا بصنعه، وكتابع بات يمتلك خبرة متواضعة فيما يتعلق بجودة العمل من رداءته أخبرته أن ذلك سيؤدي لانهيارات في السياج بمرور الوقت. فقال أن ذلك سر المصلحة، لكنه لا يعلم أنه باح بسره للرجل الخطأ. إذ كان الأمر مقصودًا والسبب أنه في حال استمر البناء في الانهيار يعني ذلك استمراره في العمل وأن صاحب السياج سيقوم باستدعائه مجددًا لبنائه من جديد وهكذا لتستمر دورة اقتصاده.

في النصف الثاني من التسعينيات غزت الساحة الاقتصادية في بلادنا شريحة كبيرة من هذا النوع من أبطال الانتاج، فامتلأت الأسواق بمنتجات أقل جودة من مبدأ -بضاعة بعمر أقل قادرة على إنقاذ الشركة والاقتصاد-، وهو أمر خلق منافسات ضخمة أدت إلى حالات تلاعب واحتيال كبيرة على المستهلك، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ حيث أقدمت بعض شركات للعلكة مثلًا بطرح مسابقات أخذت أسلوب الربح الزائف بأن طرحت مع المنتج ألبوم صور يفترض تعبئته لربح منتج أخر، في حين تبين لاحقًا أن الشركة قامت عن عمد بإخفاء قطع من صور الألبوم، وهو أمر تم الدفاع عنه لاحقًا من وجهة نظر اقتصادية على اعتباره يمنع الموت البطيء للشركة وينشط الاقتصاد.

***

الداء والدواء

في العادة أنا لا أتابع "اليوتيوب" كثيرًا، ليس مرد هذه العادة لأني لا أحبذ ذلك، إنما لأن سماعة هاتفي الخارجية معطلة منذ وقت طويل، لكن البارحة قررت ألا أسمح لشركة الخليوي أن تسرقني مرة أخرى، وذلك بسلبها باقتي المخصصة لمحتوى "اليوتيوب" كما العادة، لهذا سرقت سماعة هاتف زوجتي وبدأت الحرب على شركة الخليوي فعلًا، أمضيت ذاك النهار في مشاهدة الفيديوهات الى أن بلغتني رسالة الشركة "لقد تم استنفاذ رصيدك" هنا شعرت بالنصر للمرة الاولى، لقد هزمت الشركة ولم أسمح لها بالاستفادة من بقايا الباقات أبدًا.

بعد عدة دقائق شعرت بألم بسيط يتسلل إلى أذني اليسرى، أخبرت زوجتي بالأمر وبلا أي مقدمات قامت كطبيبة خاصة بقطرها بعدة قطرات من زيت الزيتون، لم أعترض أو أستفسر عن جدوى تلك الوصفة، استلقيت لربع ساعة تقريبًا حتى تلين أذني ويذهب الألم لكنه أخذ يزداد أكثر، حينها سألتها سر تلك الوصفة فقالت بثقة:

- إنها من اليوتيوب.

آه من اليوتيوب إنه الداء والدواء. علمت أمي بالقصة، إنها الوحيدة في العائلة التي لا تعتمد على وصفات حديثة إنما على أفكار جدتي فما كان منها إلا أن قدمت نحوي وبيدها قطرتها العينية القديمة، قامت بإفراغها في أذني حتى شعرت أنها تسللت إلى دماغي، لكن لا فائدة، أخذ الألم يمتد إلى شحمة أذني.

تملّصتُ من بينهما بتحايل وحملت أذني وذهبت إلى جاري "عقلة" صاحب الدكان، طلبت منه استعارة دراجته للذهاب إلى الصيدلية، لكنه بدل ذلك زعق في وجهي قائلا (صرف المال على الصيدليات لن يخفف البلوى يا حلو)، ثم جرّني من أذني وأخرج من درج طاولته فحل بصل كبير وضعه على الطاولة وأخذ يهرسه بيده المتخشبة، اقترب نحوي فتح أذني حتى صحت من الألم، قام بقطرها بعدة قطرات بماء البصل، ثم قال بثقة:

- ستنط مثل القرد بعد خمس دقائق.

- وهل هي مجربة؟

رد بنظرة استغراب:

- لقد رأيت ذلك على اليوتيوب.

مرت خمس عشرة ساعة منذ ذاك الوقت وبدل أن ينحسر الألم امتد ليحتل نصف رأسي الأيسر بأكمله.

يبدو أنه حين يبلغ المرء منتصف الثلاثين تصبح خياراته أكثر عشوائية، يتحول الى مطية للجميع وحقل اختبار للآخرين، كما يبدأ العد العكسي للنشاط، حيث العجز النفسي والعجز "الخياراتي"، فتبوء جميع حروبه بالخسارة، لهذا ان بلغت الثلاثين لا تعاند شبكة الخليوي لن ينالك منها سوى ألم الأذنين.

***

قل الحمدلله

البارحة في السوق الشعبي القريب من حيّنا، وقفتْ فتاة صغيرة ترتدي خمارًا أسود يغطي كامل جسدها، فجأة غدرت بها نسمة سريعة مفاجئة فكشفت عن وجهها، فجفل طفل صغير في السوق لرؤيتها باكيًا، كان وجهها مرعبًا، فأصيبت الفتاة بصدمة نفسية كبيرة، بكت وركضت تحتمي بعزلتها في منزلها تخفي ما فعلته الحرب بوجهها.

أنا أعرف هذه الصبية جيدًا، لكن لا أعرف كيف نمت بسرعة هكذا، أذكر حين حملها والدها طفلة عام (٢٠١٣) م لينجو بها من منزل احترق بفعل سقوط قذيفة، قال الأطباء حينها إن حروقها من الدرجة الثالثة لا أمل بأن تعيش كطفلة طبيعية بعد اليوم.

التاريخ لا يدوّن أوجاع أولئك مَن نكبتهم الحروب، التاريخ يكتب فقط ما يفعله الكبار بنا فيحوّلهم إما أبطالًا أو يصيّرهم إلى أنذال وفق ما تقتضيه رغبة المنتصر.

اليوم في المسجد صلى بقربي شاب لا أعرفه، يحمل عكازه ويستقيم بجهد على ساق واحدة، على جانب وجهه الأيمن حين ألقى السلام في نهاية الصلاة أخبرتني جروح قديمة ملتئمة على وجهه كيف لهذه الحرب قدرة لتتركنا دون أن توقّع بآلتها على أجسادنا الغضة، مع ذلك ليس لأولئك المكلومين من حولنا سوى الرضا والحمد.

في طريق العودة للمنزل تذكرت أنا الشامت بهذه الحياة و المتذمر منها على الدوام ذاك الشاب الذي لا أعرفه، التقيته في إحدى المشافي الميدانية قبل بضع سنوات حين كانت البلاد حرفيًا قطعة من جهنم، كان الجرحى في كل مكان، رائحة الدم الزنخة المنبعثة من قطع اللحم البشرية تعب ملء الأنفاس. صراخ، عجلة، بكاء، لطم وعويل. كل شيء هناك يدعوك لشكر الله على بقاءك إنسانًا لا "زومبي".

كنت برفقة قريب لإجراء إحدى العمليات، وفي غرفة الانتظار قامت الممرضات بإخراج شاب عشريني من العملية، وجه والده البائس يخبرني أنه أحد نازحي هذه البلدة التي غصّت بالهاربين من الحرب، لحيته وعيناه التعبتان بل كل شيء به كان متعب ولا يقوى على الحديث،

قالت إحدى الممرضات سيحتاج تأثير المخدر "البنج" لبعض الوقت فلا داعي للقلق إن تحدث بكلام غير لائق أو مفهوم.

كان ذاك الشاب المخدّر كما لو كان يحدّث نفسه في السر، كما لو كنا نحن بيت سره، سأل والده عن دراجته النارية هل تأذت بعد سقوطه عنها خلال هروبه من إحدى صوّلات الدواعش، وسأله عن حماماته هل لازلنّ بخير ولم ينهبهن أحد، ثم فجأة كال السباب والشتيمة لحماته، وتحدث بأسف كيف سرق ألفي ليرة من محفظة زوجته كانت قد خبأتها لتشتري علبة مرطب لوجهها الذي اخشوشن من النزوح، أذكر حين قال بحرقة:

- أنا عقيم يا يوب كل هالسنين مرتي بتعرف إني ما بجيب ولاد وكنت بطلع عليها بالعالي..

تغير صوته وأمسك يد والده ثم أكمل بوجع:

- بدي ولد يا يوب، أي شي منشان الله، بدي ولد يحمل اسمي، أنا قبلان يكون جرو، يكون كلب، حتى لو رجل كلب بس المهم ولد يقلي يابا، مابدي موت وأنا وحيد يا يوب، منشان الله قول للدكتور بدي ولد.

لم يقوَ والده على التحمل، بكى حرفيًا كطفل، قد أعجز عن وصف ما جرى، حاولنا أن نصبّر الأب لكنه لم يقوَ على ذلك، كنت أعلم أنه يحاول ألا يبكي وأن يبقى رجلًا، لكنه نشج بصوت تتقطع له نياط القلوب، وحين طفحت عيناي أنا الآخر بالدمع حملت جثتي أواري دموعي بين الجرحى والباكين خلف صوت الرصاص في الخارج.

هذه الحرب كهذه الحياة أقسى مما نتخيل، لكم رأيت خلال هذه السنوات رجالًا يبكون كالنساء، ونساء تحولنّ إلى أشباح، لكن مع هذا لا زلنا لم نخسر كرامتنا، فهذه الامة لا تموت، تفشل لكن لا تموت.

فحين تنظر إلى وجهك في المرآة كل صباح قل الحمدلله أنه لم يحترق كما احترقت وجوه شبان وشابات سورية الجميلة، قل الحمدلله على نعمة التفاصيل الكاملة.

حين تدوس قدماك الأرض أثناء ذهابك للعمل، للمدرسة، للدكان قل الحمدلله على نعمة المشي، الحمدلله الذي لم يجعلني كلًّا على أحد.

حين تعود إلى منزلك متعبًا فتصرخ وتشكو لأصدقائك عدم قدرتك على الراحة والنوم بسبب صراخ أطفالك أثناء لعبهم قل الحمدلله، فهناك من يتمنى لو يرزقه الله بساق كلب ينتظره عند الباب ليقول له:

- يا أبي.

***

رفاق على الطريق

كان نهار البارحة متعبًا، لربما هي المرة الأولى التي أزور بها مركز المحافظة منذ عشر سنوات، وقفت على الطريق أنتظر سيارة عابرة أتعلّق بها، فأنا أسكن في هذه المنطقة النائية منذ أكثر من ثلاثة عقود، هي نفسها لم تتغير فلا يكذب أحد المسؤولين اليوم ليقول أن الحرب هي السبب في هذه "الشنططة"، حافلة النقل الوحيد الذي يقلّ الطلاب والموظفين للمحافظة يبدو أن لا مكان لمؤخرتي الناحلة فيه، أشرت له بيدي ليقلّني معه، ثم ركضتُ خلفه كالأهبل، لكنه لم يتوقف، لهذا تعلّقتُ في مؤخرة إحدى السيارات العابرة والمكشوفة، جلستُ على أرضية السيارة، كانت حرارة الصفيح تذيب ما بقي فيَّ من شحوم.

في الطريق صعد شاب أشقر، يرتدي طاقية سوداء للوراء، مع وحمة حمراء على طرف عينه، لم يتحدث معي أبدًا، حتى أنه لم يلقِ السلام، فأنا لم أتعرّف على غرباء منذ سنوات، قلت في نفسي لربما تغيرت العادة ولم يعد يتحدث الغرباء مع الآخرين كالسابق، رحت أراقب المكان، تلال كثيرة وطرق ومفارق، في كل مكان هناك لي ذكرى مع أحدهم، لكم سرت هنا قبل الحرب مع أصدقائي، أين هم الآن، ماتوا أو رحلوا أو دفنتهم المعيشة القاتلة ولم أعد أراهم.

بعد قليل صعدت سيدة بدوية وابنتها الشابة، جلستا على الفور على الأرض أمامي، أعادت الأم تشغيل سيجارتها، نظرت إلي ثم ابتسمت حتى تكشّفت أسنانها الأمامية النخرة. ألقى الشاب ذو الوحمة نظرة ماكرة على الفتاة ثم تربّع هو الآخر على أرضية السيارة ودار حديث طويل بينهما، كان ينصحها بترك التدخين، وكانت تنصحه بالهجرة، تحدثا طويلًا عن الغلاء وعن جفاف الينابيع والآبار وعن ارتفاع أسعار الأعلاف، ثم تحدثت ابنتها عن ظاهرة الزواج أثناء النزوح، حيث تزوجت وهي نازحة ولم تأخذ من حقوقها شيء لا غرفة نوم ولا لباس ولا حفلة، ثم سخرت تلك الفتاة من عبارة أمها القائلة:

- أهم شي الستر.

عند إحدى المفارق ترجل الشاب من السيارة قام بغمز الفتاة بعينه وغادر، رجفت السيدة وبدا الخوف عليها، ثم نظرت إليّ وسألت بخوف بادٍ:

- بتعرف هالشب؟

أخبرتها أنه عابر مثلي، فصفقت يدًا فوق يد، ثم فضحت لابنتها عن مخاوفها:

- هل هو مخابرات؟

ردت البنت بضيق:

- وما أدراني، انتِ بدأتِ بالحديث عن ارتفاع الأسعار، تخيلي أن يكون من المخابرات بالفعل؟

تغير لون المرأة ثم أشعلت سيجارة أخرى، ترجّلت من السيارة ثم ألقت إلي ابتسامة تعبة:

- إستر ما شفت منا يا ابني.

الستر هو ما يبحث عنه من بقوا هنا، جميع من يرغب في البقاء هنا يبحث عن الستر، الستر من الفضيحة ومن النفي ومن الجوع، إنه رأس ما نملك، لربما لهذا السبب يردد السوريين تلك العبارة المكررة حين يسألهم أحدهم عن حالهم اليوم ليأتي الجواب "مستورة والحمدلله".

ضغط سائق السيارة على المكابح فصعد أربعة شبان آخرون، لكنهم كانوا مختلفين، إذ كانوا يشعون شبابًا وحياة وحركة، يضحكون ويقفزون كالنابض وسط السيارة.

طول المسافة جعل أحد أولئك الشبان يدندن بصوت جميل، ومَن دندن في العرف المحلي فقد أطرب، علا صوته بقليل، حتى علقت أغنيته في رأسي، تفاعل الشبان البقية مع أغنيته، باتوا يصفقون وينقرون على شِباك السيارة ويغنون سويًا.

دخلت السيارة مركز المحافظة، راح الشبان يغازلون فتيات الجامعة العابرات على الطريق، توقفت السيارة عند إحدى الإشارات، على الرصيف وقفت مجموعة من الفتيات فراح يغنّي الأربعة لهنّ بصوت جميل.

حين توقفوا عن الغناء، صاح سائق السيارة وطلب منهم مواصلة الغناء، ثم تفاعل صاحب السيارة مع الشبان وأخذ يطلق زمور سيارته طربًا، بعد عدة أمتار توقفت السيارة عند مبنى الهجرة والجوازات، ترجل الشبان الأربعة وركضوا يحجزون دورهم خلف العشرات ممن يرغبون في قطع جواز سفر.

منذ البارحة وأنا أتذكرهم أدرك أنه لمن التعاسة أن يصرف المرء حياته في هذه البلاد كبالغ، ومنذ البارحة وأنا أدرك أنه في هذه البلاد لا فرق بين أن تسافر وبين أن تسفَّر، بين أن ترحل أو تُرحّل وبين أن تهاجر أو أن يتم تهجيرك. ومنذ البارحة وأنا أدندن تلك الأغنية العالقة في رأسي "هذي البلد عضروطي - هذي البلد بعروري".

***

أنا لا أحب المثقفين

لا ملامة حين يجد المرء نفسه يميل لصنف من البشر دون سواه، تمامًا كما حين لا يلام المرء من رغبته في تناول هذا النوع من الطعام دون غيره، فكما الطعام، هناك في العلاقات الاجتماعية نباتي وغير نباتي، وأنا بالعموم نباتي حيال علاقتي بالمثقفين.

لهذا الطارئ أجدني لا أحبذ تناول المثقفين على مائدتي، لربما لهذا السبب رفضت في السنوات التي انقضت المشاركة في لقاءات تلفزيونية وإذاعية، وبعض جلسات النقاش التي دعاني إليها بعض الأصدقاء، لكنني في المقابل أحبذ تلك الجلسات التي يعقدها مثلًا ابن جيراننا الفرخ "أبو عكر"، كما أستمتع بأحاديث الفتوة والبلطجة التي يخيطها صديقي "الأظّي" رغم مبالغته الزائدة، أو حتى جلسات "السيد بانزين" الغرامية التي لا تجد ما يشبهها سوى في أفلام ديزني والتي يردفها دومًا بلاحقة مثل (صدقني)، لأنه يعلم أنه نفسه لا يصدق ما يقوله، كما أعشق أيضًا سرديات (الخبرة) في الحارة ل"أبو الزيك" كشاش الحمام في حيّنا.

قبل يومين وخلال عبوري الطريق الريفي الموحش خارجًا من زيارة لصديق يعمل في بناء الحجر التقيت بجار مثقف على جانب الطريق، بدا كشبح في أربعينية الشتاء، فكنت مضطرًا لتلبية دعوة جديدة منه، إنه لمن المحزن يا صاحب أن يراك الآخرون بحجم أكبر مما أنت فيه في الواقع فتتلقى الدعوات وأنت غير قادر على إيضاح كم هم مغشوشون بك وبثقافتك.

فأنا أحب هذا الجار الطيب، لكنه من عائلة مثقفة، ستة إخوة مثقفين متزوجين من ستة نسوة مثقفات، يتحدثون الفصحى ويضحكون بالفصحى ويمشون بالفصحى ويأكلون بالفصحى ويلبسون بالفصحى ويهرشون جلودهم بالفصحى وأمور أخرى أعتقد أنهم يفعلونها بالفصحى. المرة الماضية -قبل سنة تقريبًا- قبلت، عن طيب خاطر، دعوة وديّة لطيفة منهم، ورغم كل أمارات الود والبساطة والذوق الرفيع البادية منهم شعرت حينها أني في دورة إعداد حزبي، كنت بين المرة والأخرى أرغب بشدة أن أطلب منهم خيارات متعددة لأجيب على أسئلتهم المعقدة، فهم يركّبون أسئلة بسيطة بطريقة معقدة.

في جلستنا الأخيرة في منزله المتواضع شاركتنا زوجته الطيبة وجبة الحديث، إنها المرة الأولى التي أشعر فيها شعور أن تكون كأحد التطبيقات الرديئة في هاتف قديم وقد تم تحميلك ببطء من متجر قديم في قرية نائية قديمة يبث فيها الانترنت من شبكة قديمة وبلا أي مبالغة أو ترف في الحديث كنت بينهم كجهاز معطل بالفعل لا يقوى على التقاط أي إشارة.

في العموم إن جلسات المثقفين والمثقفات في بلادنا تجعل عقرب الساعة القصير أكثر بَلّادة، إنهم يتسفسطون ويعقّدون البسيط ويعقّدون المعقّد، كذلك الأمر بالنسبة للمثقفات، إنهنّ ينفّرنّ الرجال منهنّ، ما يجعلهم يكتفون بعلاقات ودية قد تصل في أقصاها إلى تبادل التملق والابتسام فقط، لهذا غالبًا ما تموت المثقفة المحليّة قبل أن ترى أحفادها.

من الجدير بالقول أن المثقفين تشغلهم المظاهر، ويركزون على أدق التفاصيل، على تسريحة شعرك، على لون جوربيك، على طريقة شربك للقهوة المرّة، وحتى على طريقتك في الضحك والعطاس. أنا أعرفهم جيدًا إنهم يفضلون النميمة على أصدقائهم أكثر من مناقشة قضايا الفساد في البلاد، وإن كان ولابد من القول إنهم يتحولون الى لا عنيفين أكثر من غاندي نفسه فقط حين يجدون أنفسهم ضحية البلطجة في حي مليء بالعنف.

أما "الشوارعيون" البسطاء فهم أصدقاء ثقات بحق، لا يتكلفون ولا يتصنعون، إنهم يقولون للأعور أعور بعينه وأحيانًا يدسون إصبعهم في عينه السليمة بلا مقدمات. فقط يكفي أن تصفّر في أول الحارة ليأتي الجميع لنجدتك، حتى لو كنت أنت المخطئ.

ليس العنف دائما بلطجة أو غير حضاري، قد يكون العنف إحدى أدوات السلام في غالب العلاقات الاجتماعية المستعصية، خصوصًا في مجتمعاتنا المحلية. فأن ترخي خدك الأيمن لمن ضربك على خدك الأيسر هي إحدى قواعد "اليوتيوبيا" المسيحية هنا ولا يستعملها سوى المثقفون الضعفاء.

ليس هذا فقط فغالبًا يتناول أولاد حارتنا البسطاء الحياة بمرح، فتجدهم يعيشون حياة ترف ومتعة، إنهم بحق يصرفون ما في الجيب ثم يمجّون السجائر في اليوم التالي ويلفون ساقًا فوق أخرى بانتظار مافي الغيب، لكن المثقفون يجدون أن الرزق مرهون بالركض وراء القرش والتمسك به وعدم إفلاته، إذ تقيدهم العلاقات الاجتماعية ويتذمرون دومًا من الفقر والفاقة.

لا عدالة أيضًا من القول أن المثقفين الكبار في مجتمعاتنا المحلية مهزومين عاطفيًا وغالبًا ما هم فاشلين جنسيًا، وهو أمر تدركه الحركة النسوية المحلية اليوم فتميل بالارتباط بال"نسونجي" على أن تعيش مع رجل يعترف بحقوقها النسوية.

وفي المقابل لا يفضّل الرجال حتى المثقفين منهم المرأة المثقفة لتكون زوجة. لهذا تفضّل النسويات في مجتمعاتنا الرجل البسيط على النسوي المثقف، إنها الحقيقة يا أصحاب.

لا أريد الدخول في تفاصيل تحليل النفس البشرية لكن المثقفات، نوعاً ما، يدركنّ أنهنّ أكثر سعادة مع شخص غير مثقف والعكس عين الصحيح، فالتجربة من حولنا توضح لنا كمّ الفشل الذي تعيشه النسويات مع المثقفين وكذلك المثقفين مع المثقفات في زيجاتهم.

تخبرنا التجربة أن المثقفين ليسوا هم مَن يصنعون الأحداث الكبرى، بل إنهم الشوارعيين والفلاحين الفقراء، إنهم "دينمو" التغيير عبر التاريخ، ففي كل الثورات والحركات الناجحة منها والفاشلة تاريخيًا من ثورات الفلاحين في "بريطانيا" عام (١٣٨١)م وحتى الحركات الشعبية في "أوروبا" عام(١٨٤٨)م وتمرد "البروليتاريا" في "موسكو" عام(١٩٠٥)م وكل الكومونات الشعبية وحركات العبيد قادها الفقراء والبسطاء وأبناء الشوارع، أما الصفوة المثقفة في تلك الأزمنة وحتى اليوم لا يلائمهم سوى الوقوف على الحياد وانتهاز الفرص ليقودوا الطرف المنتصر بأشعارهم وخطاباتهم.

فأشخاص ك "فولتير" و"مونتسكيو" و"روسو" و"ماركس" و"أنجلس" و"فيورباخ" و"أفلاطون" وغيرهم كثر لم يفكروا يومًا بإجهاد أنفسهم وحمل الحجر عن الطريق، إنما وقفوا من فوق تلّة وراحوا يراقبون المجتمع المتخلّف وانحراف السلطة الفاسدة في زمانهم ثم صرفوا سنين عمرهم وهم يؤلفون الكتب لوصف حياة خيالية يرونها أفضل.

التنظير الثقافي هي مهنة العاجز، مهنة أولئك الذين يمتلكون عقدًا جنسية حادة، أولئك الذي يطرحون نصائحهم ثم يفرّون عند أول نزال؛ لان المثقفين يريدون أن ينقلوا الحجر من وسط الطريق بالفكر فقط بينما البسطاء يتكاتفون ويفتتون تلك الحجارة بمطارقهم وسواعدهم كي يعبر الانتهازيون، لهذا سرعان ما تختبر الحروب والكوارث الطبيعية و الانهيارات السياسية والاقتصادية الكبرى وحتى الفكرية هذا الصنف المثقف من البشر، فيتحولون لمشبوهين في نظر الجميع، لأنهم يتنكرون لكل مبادئهم النظرية لينقلبوا إلى سلاح لئيم بوجه البسطاء، لأنهم عبر التاريخ طالما فضّلوا حماية مكاسبهم على الانتصار لمبادئهم.

***

وصفة السعادة

ربما أكون هادئًا نوعًا ما، لكن اليوم في عيادة الطبيب، ببلدة صغيرة جنوب البلاد كل شيء كان يقلق جهازي العصبي، مروحة صغيرة على الجدار فوقي برأس نصف متحرك مثل رأس يعسوب باتت تصدر أزيزًا مزعجًا في كل حركة تقوم بها، صوت حبات المسبحة المتراصة لرجل مسن بجانبي تنقر أذني اليسرى، مؤخرة سيدة تحتك بكرسي قريب تقلق أذني الأخرى، طفل يطحن بقوارضه الأمامية قطعة خيار أمامي، صبيّة تحرك ساقها كالنابض بملل بانتظار دورها، عجوز يتلمظ بشفتيه القشيبتين كلما نظرتُ إليه، كل ذلك كان يتسرب داخل رأسي الموحل كمادة "فيول" هاربة من مصنع، فتغرق نهاياته العصبية بالضجيج و تدفعني للتذمر والتعرق على غير العادة.

عند الطبيب العابس أخبرته عن كل ذلك، وعن هجمة من التشنجات في البطن مصحوبة بآلام وانتفاخ وصداع مرير، مرر يده فوق أماكن الوجع، ترنم بسماعته على نبضات قلبي الحنون، استعمل جهاز "الإيكو" وقام بقياس مستوى الدم بعلبة الضغط. كشف عن كمامته ثم قال خلف طاولته بهدوء، أعني هدوء الشخص الذي اعتاد الاعتياد على آلام الآخرين:

- تهيج للقولون العصبي.

- بس؟

رد بوجهه العابس:

- أي بس.

- والسبب؟

رد ساخرًا:

- من كم السعادة في حياتنا.

- بس؟

غيّرتُ السيرة فورًا حين أدركت ثقل سؤالي، ثم سألته عن الحلول لتجنب هذه السعادة، فطلب مني الامتناع عن تناول الدسم، وأن أكتفي بالبطاطا المهروسة والأرز المسلوق والأهم الفواكه كالموز والجوز والتفاح، وأن أبتعد قدر الإمكان عن كل ما يثير القلق ويطرد السعادة.

وحين وجدني قلقًا لجأ إلى الأرقام والنسب حين قال أنه وبمعدل وسطي يزوره كل يوم بين ٢ إلى ٣ حالات تشنج للقولون العصبي، وهي نسبة كبيرة بنظره في بلدة صغيرة كهذه البلدة.

ودعته وسلكت طريقًا إلى سوق البلدة، كانت أشعة الشمس الساقطة على هامتي تغير من أشكال البشر والألوان في السوق.

بائع الموز يضع قطعة قماش مبللة فوق رأسه ولديه من العصبية ما يجعل محيط مبيعه فارغًا، اقتربت منه وسألته: (بكم الأصفر اليوم يا أشقر؟) سألته بنبرة سعيدة فلا داعي لأقلق صحتي معي اليوم أيضًا، فالطبيب قال أن تسعون في المائة من الأمراض الجسدية سببها نفسي، ألقى إلي بائع الموز نظرة يبدو أن بها اشمئزاز:

- ب ١٠٠٠٠ ليرة يا أسمر.

- أريد أن اشتري كيلو وليس صندوقًا.

وقبل أن أسمع رده حفظت كرامتي واختفيت وسط الازدحام، الموز دائمًا سعره مرتفع، ونحن السوريين نعتبره من بين الكماليات منذ خلق الله شجرة الموز، حتى أننا نكاد نجزم أن شجرة الموز هي شجرة الخطيئة التي بفعلها سقط أبونا آدم على هذا الكوكب.

بائع التفاح شاب في العشرين يدس رأسه في ثقب صنعه في قطعة من الكرتون، فجعلها مثل طاقية رعاة البقر، وحين سألته عن السعر اقترب مني ثم أمسك يدي وقال بمرح:

- بدك تشتري ولا بدك تعل قلبي؟

- أعتقد بدي علّ قلبك.

ترك يدي:

- الكيلو ب١٢٠٠

- ١٢٠٠ ليرة؟

ساخرًا:

- لا ١٢٠٠ بيزو.

سحبت نفسي وهرولت إلى بائع البطاطا، البطاطا المهروسة أفضل دواء للمعدة، وهي رخيصة (وبنت حلال)، لهذا يطلق عليها سكان هذه الأحياء الفقيرة بلحمة الفقراء.

- بكم السعر؟

- ب ٨٠٠

- حلوة؟

بنزق:

- أنت الحلو.

أعرف أني أسمر وحلو لكنني أدركت من تعابير هذا البائع الخشنة أنه يود الشجار، فكل السكان هنا نزقون حيال تعاملهم مع الآخرين، لذا فمن الطبيعي أن ترتفع نسبة التشنجات العصبية لديهم، لهذا السبب وأمام وجه هذا البائع العنيف جنحت للسلم واشتريت كيلو بطاطا، من أردأ أنواع البطاطا.

ركبت دراجتي، وخيالي يبحث عن مشاعر السعادة التي حدثني عنها الطبيب العابس، فجأة وسط أفكاري الهاربة وسط الطريق الريفي الخالي تذكرت أني نسيت تعبئة علبة البنزين من مركز البلدة، وماهي دقائق حتى ركنت دراجتي الفارغة من الوقود، جلست قرب جذع شجرة ميتة ووضعت حزني في جرني وأخذت أفكر كيف أطبق وصفة السعادة في هذا المكان البائس.

***

بين بخلاء الجاحظ

ما أعرفه أنه في هكذا قرية ينبغي التلهي بالبخل على مزاولة عمل آخر حتى نشعر أننا ندفع ديوننا لأنفسنا، فبقدر ما في هذا العالم من زواحف في هذه القرية بخلاء. فهناك من يبخل لأنه لا يجد عملًا وهذا من عامة الناس، ومنهم من يبخل لأنه شبع بعد جوع وهذا هو الخبير الصاحي لمكر الحياة، وهناك من يبخل فيما أؤتمن على أملاك الآخرين وهو البراغماتي السلطوي النزق.

وعند كازية وسط القرية تجمع اليوم بخلاء هذه القرية من الانواع الثلاثة لاستلام خمسون ليتر مازوت من مخصصات التدفئة الحكومية، وعلى قلب رجل واحد انهالوا على صاحب الكازية بالذم والقدح؛ لأنه رفض تشغيل المولد الكهربائي لأنه لا يريد أن يدفع ثمن لتر بنزين من جيبه، ورغم كل الإساءات التي علقت بوجهه إلا أنه كان يكشطها عن وجهه ويفصّم البزر ويهز برأسه لهم ثم يطلق النكات ببرود تام، المميز في صاحب الكازية أنه لا ينكر أو يخفي بخله عن الآخرين، فهو يقولها صراحة حيث البخل بالنسبة له وسيلة من وسائل الترف العفيف، وبالفعل فقد كسب بفعل أسلوبه ذاك ثروة كبيرة مقارنة بغيره، لربما لأنه يعجبه ما جاء في الأثر بأن الثروة تتحصل للمرء إما من شح وإما من ميراث، و من نوادر هذا الشحيح أنه ذات مرة زارته جمعية خيرية لجمع التبرعات لترميم المسجد في القرية، فصاح أمام متطوعي الجمعية قائلًا:

- إن رأيتموني أصلي في المسجد اكسروا رجلي.

لهذا وأمام هذا النوع جلسنا اليوم جميعنا ننتظر الكهرباء على حائط الكازية. بالقرب مني رأيت "أسامة المخلوع" ينتظر مثلي حصته من المحروقات، كلما أراه أتذكر حديثًا قديمًا سمعته خلسة عند الحلاق وقع بينه وبين شاب آخر يمتلك زائدة لحمية على أنفه، لفّ حينها "أسامة" ساقًا فوق أخرى ودسّ فمه بوجه صاحب الأنف ذو الزائدة اللحمية، سأله هذا الأخير إن كان قد وجد زوجة جديدة أم أنه لازال باكيًا على الأطلال باحثًا عن أخرى بعد أن خلعته زوجته وتطلقت. فقال من قلبه بعينان منكسرتان حزينتنان عابرتان:

- أريد امرأة تحبني، لا أحد يفهمني، أريد زوجة تحبني من قلبها لا من ركبتها، أريدها من فرط حبها لي أن تكون خاتمًا في إصبعي، أي شيء أقوله لها تقول لي حاضر، أقول لها مثلًا لا تضعي زيت على الطبخة تقول لي حاضر، وحين أقول لها لا أملك المال تقبل وتعيش صامتة على الحلوة و المرّة.

- تقصد ألّا تكون متطلبة؟

- ألا تكون متطلبة نعم، زوجتي السابقة عافتني وعافت أولادها رغم أنها تأكل خبزتين على الوجبة، خبزتين وتقول أني أتباخل عليها.

قال صاحب الأنف ذو الزائدة اللحمية:

- النساء لهن معاملة خاصة، إنهن يردنّ أن تؤمّن لهنّ متطلباتهن و أن تقول لهنّ كلمة حلوة..

- نعم أصبت، كلمة حلوة.

- وأن تؤمن متطلباتهن.

- نعم الكلمة الحلوة أهم شيء.

- أقول أن تؤمن لها ...

- نعم، نعم الكلمة الحلوة أهم من المال، هذا ما أريده

أما رئيس الجمعية الفلاحية أمام الجميع يذرع المكان جيئة وذهابًا بضجر، ثم بلفتة صاح على صاحب الكازية:

- خلّص سمانا يا رجل، لدينا أعمال.

ألقى عليه صاحب الكازية نظرة باردة ثم أخذ يعايره بفساده قائلًا:

- هل ستبيع قمح الفلاحين في السوق السوداء مرة أخرى، أم أن هناك صفقة سماد عضوي مستعجلة تريد تهريبها.

لملم رئيس الجمعية ثوبه في تكة سرواله وفي لحظة عصبية كادا يتقاتلان، وبين سد ممن حجزوا بين الديكين باتا يعيران بعضهما ببخلهما، فقال بحقه رئيس الجمعية بلهجة بدوية كلامًا ثقيلا من صيغة (+١٨)، فرد عليه صاحب الكازية معايرًا له ببخله أيضًا:

- أنظروا من يتحدث، أبو كاسم من يصعب أن يجتمع أمام مضافته نعلين.

أما أنا فلا أبرئ نفسي من هذا الصنف، لربما الحرب والضائقة المعيشية هي السبب، فالبخل في هذه القرية كمتعة لا يستمتع بها إلا الآخرون، وأنا أيضًا كثيرًا ما أكون من "الآخرون"، لهذا لا عبث ان كتب الجاحظ كتابه عن هذا الصنف من البشر فهم منتشرون في كل العصور.

***

مطعس أبو رجل خشب

من أقصى الريف إلى أقصى المدينة ولأكثر من عشرين عامًا وهو يحمل رجله الخشبية ويحجز كرسيه بجانب سائق الحافلة ووجهته كل صباح وكل يوم محكمة المدينة في محافظة "القنيطرة"، ينتظر مع المراجعين ليصل دوره إلى القاضي، القاضي الذي تغير أكثر من مرة خلال تلك السنوات، سنوات بحثه عن حقه، لكن قضية "مطعس" "أبو رجل خشب" لم تتغير.

الكل في دار القضاء بات يعرفه، صاحب البوفيه يسرع ليصنع له كأس شاي سكر خفيف وبالنعناع قبل غيره من موظفي الدائرة، حتى قبل مدرائه، المراجعين على أهمية قضاياهم يفرغون له الدور ليصل إلى القاضي، القاضي الذي لا يحتاج إلى سجلات وأوراق يقرأها ليرى ما هي قضية "مطعس"، لأن الجميع يعلم أن "مطعس" الذي جاء من قرية نائية أقصى المحافظة

- جاء ليستعيد أرض أجداده التي استحوذ عليها جاره قبل عدة عقود تزيد عن الأربعة.

جاره هو الآخر و خصيمه كان لا يعطي لتحرك "مطعس" ضده في القضاء أي بال، فهو مطمئن أنه لم يختلس شيء، وأنها أرضه التي يكفله بحمايتها القانون، يركب الجار الخصيم سيارته إلى المحكمة حين تأتيه نشرة شرطية تبلغه حضوره للاستجواب، لا يرفض أي دعوة تأتيه وهو فعل يفعله من باب احترامه لجاره "مطعس"، حتى أنه بات يأخذ الأمر بنمط حياة معتاد، حتى أنه بات يشعر بشيء من فراغ ونقص حين تتأخر المحكمة باستدعائه لمثوله أمام القاضي.

الأرض بالنسبة للريفي هي أغلى من أولاده حتى، فتنازل المرء هنا عن ذرة تراب لآخر هو امتهان لتاريخ العائلة، وهو أمر يدركه كلا الجاران الخصيمان جيدًا، ورغم كل هذا لم تسمح تلك القضية بأن يتندر الجاران للود والخل بينهما، أو أن يتنكرا لحقوق الجيرة.

فحين يولم أحد الجيران لمناسبة سعيدة يتجه إلى جاره خصيمه، وقد جرّ معه أحد أبنائه ليقرع له باب جاره، لأنه لازال مكسور الخاطر من جاره ولا ينبغي أن يلمس هو باب بيت

غريمه، فيفتح الجار الباب، فيميل الجار الأول الذي قدم إلى منزل جاره رأسه باتجاه ابنه فيقول له:

- قل لجاري أنه اليوم معزوم على مناسبتنا.

فيكرر الابن ما قاله والده لجاره، فيرد الجار على جاره وقد أمال هو الآخر وجهه عن وجه جاره:

- قل لأبيك وصلت دعوتكم، وألف مبارك، وقل له ليتفضل ليشرب القهوة المرّة.

وبالفعل لا يترك الجاران مناسبة إلا وقبلاها بينهما، حدث ذات مرة أنه في نهاية إحدى الجلسات التي استدعى فيها القاضي خصيم "مطعس" للمثول للقضاء قد انتهت كالعادة بلا أي نتيجة، فتم تأجيل الجلسة لموعد آخر، في ذاك اليوم تعطّلت حافلة القرية، ولم يجد "مطعس" من يقله من المدينة إلى منزله فجلس على طرف الطريق فوق حجر كبيرة بحجم مؤخرته ينتظر تحت الشمس أحد السيارات العابرة، ركنت أمامه سيارة جاره خصيمه، أشغل هذا الأخير زمور سيارته ثم فتح بابها الأمامي دون أن يتحدث مع "مطعس" بحرف، حمل "مطعس" جثته وجرجرها داخل سيارة غريمه، ركبا سويًا دون أن يتفوه أحدهما بحرف، في وسط الطريق أخرج صاحب السيارة علبة تبغه، لف سيجارة له وأخرى لجاره، ثم وضعها أمامه على تابلوه السيارة. تناولها "مطعس" ثم أشاح بوجهه بعيدًا عن وجه جاره ورفع لفيفته ليشعلها له.

اليوم أفتت المحكمة ل"مطعس" برفض قضيته، وأن نضاله خلال عقدين لأجل أرض قال أنها ملكه تبين بالدليل والشهود أنها ليست له بل لجاره، ومع ذلك هذا الأمر لم يغير شيء من معاملات الطيبة والحب وحقوق الجيرة بين الجارين، بقيت نساء الخصيمين تتبادلان الزيارات دون أن يمنعهما أحد، وبقي أولادهما يلعبون ويسهرون ويعملون سويًا، كما يسندون بعضهما البعض في أوقات الشدة والمحنة.

في الأساطير القديمة قبل آلاف السنين قيل أن حياة واحدة لا تكفي لنكون طاهرين، بل سلسلة ولادات؛ لكن خلال عشر سنوات من المحنة قالها السوريين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ولآلاف المرات ولادة واحدة كافية لنتقاسم الخير والمحنة معًا، كافية لنكون طاهرين.

قبل بضعة أشهر غرق أحد شبان قرية قريبة مع ثلاثين مهاجرًا في بحر ليبيا، وبعد أن أنقذه خفر السواحل الليبي تم إيداعه السجن وفرض عليه مبلغ مالي كبير ليتم إطلاق سراحه.

الشاب الذي اغرقته الديون وأثقلت كاهله تلك الرحلة لم يعد قادرًا على دفع ملّيم واحد، فتمخضت تلك الضغوط بشكل نوبة قلبية في صدره، سارع سكان القرية لسماعهم بالأمر لجمع المال له، محبيه وحتى خصومه لم يتركوه، حتى أن بعض المدينين لذاك الشاب غفروا ديونهم المترتبة عليه لوجه الله ودعمًا له أمام ضائقته. وحين عاد إلى منزله استقبله الجميع كما يتم استقبال المحبين والأبناء.

هكذا نحن، من يقول أننا أمة قد شرذمتها الحرب فهو مخطئ، السياسة والحرب لا تفرق بين أبناء شعب تشارك المحنة قبل الخير مع بعضه البعض لآلاف السنين، فقد قال المتأخرون قبلنا "من يتغذى منه الشيء فهو منه بالضرورة"، ونحن اليوم، جميعنا في الداخل والخارج منه بالضرورة لمن لا يعلم، منذ آلاف السنين ونحن نزرع لقمتنا في تربة الجزيرة ونحصدها في حوران بعرقنا ثم نتقاسم كسر خبزنا في "دمشق" والمغمس بزيت زيتون "إدلب"، فكيف يموت الخير فينا.

أعلم أن أثقل الحديث هو الكلام المعاد لكن أحبذ أن أكرر:

- نحن أمة لا تموت، تفشل لكن لا تموت.

***

نساء مستعملة للبيع

اليوم أنا في العاصمة، إنها مدة طويلة عن آخر زيارة لي لهذه المدينة الجميلة قبل عشر سنوات. لكن لعمري وأنا أجوس دروب هذه المدينة أشد ما يدفعني للشفقة على حال هو حال نسوة الفلاحين هناك ورائي، إذ خبرتُ أمرهنّ جيدًا خلال مكوثي بينهنّ طوال تلك السنوات المرّة الفائتة. فلا عجب إذًا أنهنّ يتواسينّ بالنعيم الذي وعدهنَّ به صالحو الريف والكتب المقدسة، لأنهنّ علمنّ حجم مشقتهنّ في الدنيا ومشقة تبديل حالهنّ وسط كل تلك العقول الصعبة والمعيشة الضنكة لحالٍ أكثر هدهدة من هذا الجحيم بعينه.

كل صباح ما إن يبلغ صوت الديك صولجان أذنيها بصياحه حتى تفز المرأة الريفية مكرهة بسراويلها الطويلة والسميكة والخشنة والمعفّرة بالطين وبزبل البقر المالح؛ لتركض بين البيوت والكروم والزرائب لترضي زوجًا فحلًا لا يعجبه العجب سوى التفاخر أمام الآخرين بكيفية عدم منحها فرصة للتنفس، الجميع هناك يُكره المرأة الريفية بالتفاصيل اليومية.

على الأطراف في بلادنا بعيدًا عن المركز يُنظر للمرأة كآلة. ولستُ أبالغ فيما أقول، حتى أنه لو كانت تلك المسكينة آلة لتعطلت بعد يومين في عملها في الأرض على أبعد تقدير، ولو كانت آلة وكانوا قد دفعوا ثمنها طينًا لا مالًا لكانوا أراحوها ورحموها حينًا، لكن أغلب صباحات هذه النسوة تبدأ على هذا النمط "الفيودالي" الحزين وتنتهي به. وحين تمرض إحداهنّ وتتعطل ويصبح اصلاحها مكلفًا فإنها تُفكك وتُرمى كخردة في مستودع مليء بالفئران، وأنا أقصد ذلك حرفيًّا.

لقد مشيت ذات مساء في خلوة مع نفسي في ممشى مسوّر بأشجار "الكينا" في إحدى طرق الريف جنوب البلاد، وحين بلغتُ عِرصة من الأرض رحبة الجنبات بلغني تردد نحيب تلك السيدة الريفية المطرودة من زوجها وقد تكوّرت فوق عبّارة ماء صغيرة.

إنها ليست المرة الأولى، أنا أعرفها، إنها باتت بالنسبة لبعلها مكنة صدئة لم تعد قادرة على الإنتاج، تزوجت تلك البسيطة من شاب في القرية، قبلته كزوج ورفيق، فكال لها الضغينة بأقسى أنواع المعاملة كعدو لا زوج، وحين لم تتمكن من الانجاب تزوج عليها بأخرى فأصبحت

خادمة للعريسين الجديدين، لكن حين تدهورت صحتها بفعل المرض وجدها مكنة مكلفة أكثر من كونها منتجة، وأكاد أحلف مئة يمين لو أن أحدًا هنا يشتري النساء المستعملات لكان هذا الزوج قد باعها بأبخس الأثمان دون أن يرف له رمش، لكنه رماها في الزريبة مع البهائم لتقاسي أنواع الآلام النفسية والجسدية حتى طوت نفسها على وجعها وماتت وحيدة.

يا لقساوتنا، لعمري أننا لا نرحم ولا نترك لرحمة الله لهنّ بيننا بأي حال. نروم منهنّ كل شيء ولا نقدم لهنّ شيء واحد يرغبنّ به. وحين تصل إحداهنّ إلى باب العدم، كما تلك المسكينة، فلا نحن نمسكها بمعروف ولا نحن بمن سرّحها بإحسان، رغم معرفتنا الجاهلة بأننا حين نُعرض صفًا صفًا أمام الله في اليوم الموعود سنُنسبُ لهنّ طوعًا وكرهًا، لأن هذا ما وعد الرحمن.

إنهن على خلاف نسوة هذه المدينة، النسوة هنا رغم كدحهنّ يعشنّ في الجنة دون أن يعلمنّ، أما في الريف فالنسوة تكدح طوال النهار وحين يضم الليل جناحيه على القرية يفرغ الرجال بهنّ شهوتهم مع كيلهم المستمر لهنّ بالشتيمة بفعل رائحتهن العطنة وكنوع من التمنن فهم لا يتعبوا من مقارنة زوجاتهم بنسوة المدينة وأناقة نسوة المدينة ودلال نسوة المدينة ورائحة وغنج نسوة المدينة، ويكأنهم لا يعلموا أن بعض الخواطر المكسورة لا تُجبر. فالتهكّم الساخر عليهن في كل جلسة، عن لباسهنّ ورائحتهنّ وشعرهنّ النافر وأسلوبهنّ غير المنمق في الحديث كلها في مقدمة المواضيع التي يتناولها الأزواج في سهراتهم. لكن لا أحد منهم قال يومًا أنهنّ لا يسمح لهنّ أن يتفردنّ لدقيقة للاهتمام بأنفسهنّ.

ليت لي قدرة على ذكر أسمائهن كلهنّ، كل نسوة الريف الكادحات المناضلات، تلك اللواتي لم يقرأن حرفًا في كتاب ولا أمسكنّ قلمًا في دواة، كل ما أجدنه هو فلح الأرض وبذارها وحصادها وحلب البهائم وخرط خياشيمها وجرف زبلها وتبنها وترتيب جوارب زوج اعتبرها قطعة من حديد، وأقصى رفاهيتها أن تكون ممخطة في فراش الزوجية.

بلّغوا نسوةً في العاصمة أن "نضالكنّ" بالجلوس في منصات ثقافية وأمام وسائل الإعلام تأكلنّ الموز وتشربنّ البيبسي تحت اسم "دعم النسويّة" ما هو إلا جلسة مسّاج لنسوة في الريف، وأن ما تسمونه صراع لأجل البقاء وكدح وثبات في مساعدة مجتمعكنّ ما هو إلا فصل من فصول الرفاهية والتدليس. وأن دفاعكن عمّن تسمونهنّ "بالنسوة الكبار" في مجتمعنا ما هو إلا "ضحك على اللحى والخياشيم". ليتكنّ تحاربنّ لأجلهنّ، لأجل نسوة الريف لأنهن هنّ " الكبار" لا أنتنّ.

في الريف هناك قوارير تكسر، هناك امرأة تُقتل كل يوم وأخرى تُقيّد بالسلاسل وتُربط عارية ليلًا في عامود كهرباء لأنها نامت ونسيت أن تغسل جوربًا لزوج، وفي الريف هناك أمٌ تُحرم من أطفالها وطفلة تزوّج ثم ترمى في الشارع كممخطة بلا أي حسيب، في الريف جميع النسوة يعرقنّ كل يوم لتضعنّ أنتنّ على موائد أطفالكنّ بيضًا وحليبًا ولحمًا وزيت زيتون وخبزًا مطليًّا بالزبدة.

بلّغوا نسوة في العاصمة ليتذكرنّ معي تلك الأسماء، فأنا لا أنسى الحاجة "فيضة، عيدة، رحمة، بورة، حاجة، صبحة، عائشة، فاطمة، عمشة، ثلجة وعسيلة"، ونسوة كبار كثر هنا كنّ سببًا في بناء أمة.

***

نحن ننقرض

بينما أجمع الحطب شاردًا خلسة في حراج منعزل، التقطتُ غصنًا أخضر وغض، فبلغني وأنا أجاهد في احتطابه صوتٌ مبلل تهادى نحوي بلكنة بدوية:

- لا تكسر غصنًا بإمكانك أن تصعد به إلى الأعلى.

أدرت رأسي نصف دورة، هناك يتربص بي شيخ كبير مُكتنز بين أشجار "الكينا"، انعكس انكسار حالته أمامي في مقلتيه الحزينتين، كما كانت يداه وشفاهه ترتعشان بالذل والبرد، ابتسم لي وهو يقطر طينًا، فتراخت يداي لكلماته خجلًا عن ذاك الغصن، فكلماته هي قاعدة اللصوص المحتطبين، لهذا حررت ذاك الغصن من مطرقتي متأسفًا لفعلتي.

دحرجتُ عيناي حولي في المكان وقد نَهبتْ الحرش مطارق ومعاول وبلطات لكل أصناف المنسحقين، صِبية صغار، نساء حوامل، شبان بسراويل ممزقة، كهول وعجزة. دارت عيناي في المكان حتى عادت إلى ذاك الشبح وقد تأبط تحت ذراعه حزمة من الحطب ليأخذها لأولاده، قال مفارقًا:

- خذ حصتك من هذه الشجرة لكن لا تدمرها.

ثم ابتسم لي تعبًا فأرفق مغادرًا يبحث عن باقي حصته من أعواد يابسة. بلغتْ كلماته في نفسي مبلغها، فكرتُ أنا الآخر كم كنت ظالمًا لنفسي بسرقة عود أخضر مشبع بالحياة بإمكانه أن يصعد بي إلى الأعلى، وأن يكون وقودًا لأولادنا من بعدنا، أعجزتُ أن أكون مثل ذاك العجوز أو حتى مثل ذاك العود؟

يبدو أن ذاك العجوز تعمد تأجيج رغبتي حتى درتُ في الحرش، كل القرية كانت تحتطب، جميعهم مثلي ومثل ذاك العجوز لصوص يشغلهم الخوف، حتى الأمطار تتسابق في جلدهم والبصق عليهم وإذلالهم. طفل صغير في العاشرة يرتجف من البرد حنى ظهره ليصعد عليه أخيه الآخر حتى يتمكن من بلوغ جذع يابس، وأطفال آخرون يقتتلون فيما بينهم على السبق في العثور على غصن، سيدة حبلى مع أطفالها تلف ثوبها الريفي الطويل المطرز بالوحل،

رجل كبير يجاهد بحيل فاتر غصن عالق، شبان في العقد الثاني والثالث يحملون بلطاتهم يقمعون بها أعقاب أشجار قديمة ويابسة.

نعم، إن المرء في بلادنا وبحق ليسمع هنا أصواتًا ثرثارة تعوي بقسوة الحياة كل حين، هذه الحياة القاسية التي لا تنتهي. اليوم ومع حبات المطر التي تبصقها الريح نحوي بقوة ارتفع في داخلي لكل هؤلاء المُهانون هتاف مزعج ومباغت:

- أيها اللصوص الطيبون،

أيها المنقرضون،

يا عورة الإنتاج،

يا أبطال الاستهلاك وأنماط البطالة،

يا أشباه البشر والحجر وخطايا الإنسان،

يا إخوة الطين وبصاق العالم،

يا رعشة الذل والعدم،

ويا ضجيج المارة،

أيها الأحرار في عبوديتكم،

أما آن لكم أن تنقرضوا؟

مجددًا أتأملهم جميعًا من عينان مغلقتان باتساع، مثلما يتأمل المرء لوحة من لون واحد، هو لون الطين، وأمام هذا المشهد مضت في ذهني أفكار مشؤومة، لا أعلم لما تملكني شعور أننا حرفيًا نعيش في غابة. ففي الأيام الغابرة، كان الرجال يخرجون من كهوفهم عراة يحملون عصيًا مسننة ليعودوا بالطرائد لأطفالهم وزوجاتهم، وما أشبه اليوم بالبارحة، ما أشبهنا بأجدادنا الغابرين، سوى أنهم اكتشفوا لنا النار ونحن بدورنا أحرقنا أحفادهم بها.

كل شيء معطل، بدائي ومتخلف، حتى ساعات الحائط في منازلنا مصلوبة على جدراننا صامتة، العالم يدور ونحن ثابتون، بل نرجع القهقرة، إننا في حالة وقف تام.

جميع السكان في هذا الحي الريفي الفقير على الأقل يطهون طعامهم، كما فعل السالفون من أبناء العصر الطباشيري المبكر، على الأعواد اليابسة أو روث الأبقار الجاف. كما تلد نساؤنا في الشوارع لدى داية القرية الودودة التي لا تطلب منك أجرًا لقاء منحك حياة جديدة، كما أنها وبفضل الله لا تسلبك حياتك كما تفعل المشافي الوطنية وأطبائها المتنمرون. نعالج أولادنا المرضى بطرق آبائنا أبناء الكهوف بالكي بالنار أو بالأعشاب، ولا ضير أمام الجميع إن توفي أحد جراء ذلك، كما توفيت "وردة" الصغيرة قبل عام لأن والدها كان يسقيها منقوع "القريّص" وهي نبتة سامة قيل له أنها تساعد على تخفيف آلام الرمل والحصى، لأنه لا قدرة له على تكاليف علاجها، وفوق كل ذلك لا قانون يحمينا هنا، نحن نحل مشاكلنا بأنفسنا، لا نتكل على القوانين المكتوبة فهي لا تعيد لنا حقوقنا المنهوبة، بل تحتاج من يحميها، فقد كثر اللصوص والمتصعلكون، كثر القوادون والمجرمون من حولنا، لهذا ترانا نلوذ بالعشيرة وبالعصبية لنحمي أولادنا، ولأجل كل ذلك نلجأ إلى العرافين والمشعوذين والدجالين للحصول على أمل جديد في غدٍ جديد.

أمام ذلك رجعتُ إلى منزلي، حاملًا تلك الأفكار المشؤومة مرة أخرى، وفي الطريق سمعت خشخشة أعواد تزحف على الأسفلت، عود أخضر كبير يُجر أمامي، حين اقتربت أكثر لاحت لي هامة ذاك العجوز، ذاك الشبح المُكتنز قد سرق العود الطري الغض مني.

يبدو أننا ننقرض أو في طور الانقراض، إننا فعلًا في مرحلة سابقة لنشوء الأمم ولنشوء الإنسان المتمدن، الناس هنا يجوعون حرفيًا، يموتون حرفيًا وباتوا ينهبون كل شيء، إنها حرب الكل ضد الكل أي شيء ليكسبوا يومًا إضافيًا في الحياة، لهذا تركت ذاك العجوز وبدلّتُ طريقي بآخر كي لا تتصادم عيناي بعيناه، كي لا أخجله. يكفينا انكسارًا، ألا يكفي أن الكل يكسرنا كل يوم. لكن ما أعرفه الآن وبحق أننا بحاجة إلى غصن لين نصعد به إلى الأعلى لنخرج به من كل هذا الطين.

***

بقرتنا الحمراء المحقِقة للأمنيات

حين كنا صغارًا كنا نلتئم بدفء حول جدتي لتسرد لنا حكاية "بقرتنا الحمراء" تلك البقرة المحققة للأمنيات، تمامًا كما في الأساطير الهندوسية التي تتحدث عن "كامدهينو" البقرة اللطيفة التي عاشت في عالم الآلهة لتلبي رغبات الفقراء على الأرض. كذلك بقرة جدتي الحمراء كانت تطعم ذاك الفتى اليتيم والفقير أي شيء يتمناه من مؤخرتها، فبدل أن تلفظ الفضلات والزبل فهي تلفظ الأمنيات.

هذه "اليوتوبيا" السردية في المخيلة الشعبية لا تقتصر على الأجداد والجدات، فالبقرة في الريف، حتى اليوم، مخلوق مبارك ومحقق للأمنيات عن حق، تمنحنا من ضرعها اللبن ومن مؤخرتها السماد العضوي والجلّة ومن كتفيها اللحم في نهاية مسيرتها، لا عجب إذًا أن تقدسها بعض الشعوب في كثير من الثقافات كما في قبائل "الدينكا" الأفريقية.

لهذه المبروكية، التي لا تصل لحد التقديس لدينا، نهبتُ اليوم ساقاي مع جار لي الطريق الضيق الدبق بالطين، وعند مدخل زريبته، كانت الديكة والكلاب قد انتشرت في محيط منزله، وحين كشفت أشعة الشمس باب الخان الحديدي الصدئ و المطلي بالزفت ولجنا إلى داخل الخان حيث لاح أعلى الجسر الخشبي الذي يحمل سقفه حبل ممدد ومطوي يأخذ شكل أرجوحة تُرك طرفه الآخر حرًا من غير عقدة. ولو لم يخرخر شبح في زاوية الخان لما تحسستُ مكان بقرته المتوحشة في هذا المكان المعتم.

فقبل أن يطلب ذاك الجار مساعدته لرفع بقرته بذاك الحبل وحملها على النهوض قال لي:

- إنها بكرية شابة، وهزيلة قليلًا وتحتاجنا لمساعدتها على الوقوف كي تتمكن صغيرتها من رضاعتها ولكي تتمكن هي من تناول العلف.

فقد أصيبت بوهن عام بعد ولادتها مباشرة. لكن حين اقتربت منها لم يقل لي أنها قطعة متخشبة في جدار لا بهيمة من لحم ودم، وأن المجاعة قد بلغت مبلغها في جسدها الهزيل.

ولتفهموا حالها عن قرب دعوني أقول أمرًا، أتعرفون شكل البسكويت المحترقة المغمسة بالحليب، مع بقاء القشطة المتخثرة أعلى البسكويت منتهية الصلاحية وقد تم وضعها أسفل صندوق قديم أرضيته لزقة بالزيت والسكّر المذاب في مكان غني بالرطوبة، ثم تخيلوا أن يأتي عامل توصيل الطلبات يحمل الصندوق بلا اكتراث فيسقط منه في ريغار من ريغارات بلادنا فيسارع كي لا يُطرد من وظيفته ليستخرج البسكويت، يمسحها من الأوساخ بكم قميصه المتسخ أيضًا وينقلها إليك فيجدك صائمًا ست عشرة ساعة بانتظار بسكويتتك، فتُصدم نفسيتك من رؤيتها فتحرك لسانك المشلول من هول الصدمة بلا شعور في تدنيس تاريخ صانع البسكويت.

شعوري حين رأيت هذه البقرة المسكينة هو شعور ذاك الصائم حين رأى تلك البسكويت. فأنا على يقين أنها لو عرفت طريق "شرطة الحيوانات" لجرت زاحفة لتقدم شكايتها لهم من هذا الجار ومن مؤسسة الأعلاف، فعيناها العمشاوتان المبيضّتان وعظام قفصها الصدري القابل للتشريح بدون سلخ وضرعها الناشف فوق أرضية زلقة بالزبل دفعتني لأشهق لحالها بلا وعي. لهذه الدهشة قال جاري مبررًا حالتها:

- لقد زارها ثلاثة أطباء من أمهر الأطباء البيطريين الذين لم يهاجروا بعد، وقالوا بصيغ مختلفة: "أحضروا لها طبيبًا أو تناولوها على الفطور".

في بلادنا ليس فقط من يتحدث في السياسة أو الدين أو الجنس يوهن عزيمة الأمة، هناك أيضا "المؤسسة العامة للأعلاف" ينبغي أن تضاف إلى ثلاثي "التابوهات" المحرمة في بلادنا. فهنا مثل بقرة جاري أبقار كثر قد وُهِنت عزيمتها ونفسيتها بلا رحمة وتنتظر من يحقق لها أمنيتها بالعيش الكريم. ففي الريف اليوم هناك بقرة واحدة من بين عشرة أبقار تحصل على مستحقاتها من العلف، بينما التسعة المتبقيات يعشن على الدعاء بأن ترأف بحقهنّ الحكومة فتخفّض سعر العلف وعلى صلاة الاستسقاء لنزول المطر.

***

بين كهنة آمون

في الأيام الأخيرة بت ألتجأ إلى المسجد أكثر من ذي قبل، لربما إنها عودة، أتمنى أن تكون كذلك بحق، لأننا جميعًا بحاجة إلى عودة حقيقية إلى الله في هذه العصور المظلمة، ليس لأن "الدين للفقراء" ولا لأنه "أفيون الشعوب"، ولا لأن "الدين لله والوطن للجميع"، بل لأننا كلنا عيال الله ولله.

لكن يوميًا تختبرنا الحياة بأبشع صورها، تكشف وتعري أمامنا صور أولئك الذين من المفترض أن يكونوا كما دعتهم الكتب السماوية "ظل الله على الأرض". أولئك الذين نعيش بينهم ونقدم لهم قرابين وهبات اسبوعية تسمى "تبرعات". أولئك الذين يعرضون أزيائهم أمامنا كل جمعة بسراويل قصيرة وشارب محفوف ولحية معدلة الكترونيًا تحت عمامة بحجم هذا الخراب في هذا البلاد الذبيحة.

إذ يستدعيني موقف البارحة لأعيد التفكير مجددًا، فالبارحة خارج المسجد تحلّق المؤذن والخطيب ومصلّون وتجار صغار حول مشرد فقير، دسّ المؤذّن النزق يده في نطاق سروال ذاك المشرد من الخلف كي لا يدع له فرصة في الهرب، ثم نبح به الجميع نباح كلب واحد واتهموه بسرقة إحدى (أحذية) المسجد الجديدة. تصبب المسكين عرقًا، وجهه الأسمر المتسخ أصبح داكنًا، قميصه المقلّم والدبق بالزيت والتراب والباهت بفعل الشمس كان ممزقًا، وحتى يدافع عن نفسه كان يقول بخوف عبارة واحدة فقط:

- ما سرقت.

الخوف من لحاهم الطويلة وملافظهم الفصيحة ربما قد داس على مخارج حروفه. فقام أحدهم وهو صاحب دكان كبيرة بضربه بجمع كفه على كتفه قائلا:

- كيف تسرق من بيت الله؟!، ما بتخاف الله.

كذلك فعل الخطيب أيضًا، بل كذلك فعلوا جميعًا.

سألت نفسي؛ إن كانوا يؤمنون فعلًا أنه "بيت الله" لما تكالبوا جميعهم على مشرد أخذ من بيت الله. بل لما لم يقل أحدهم أنه بإمكانهم شراء "شحّاطة" له من تبرعات المسجد تلك التبرعات التي يتقاسمها الخطيب كأجر لكلماته المكررة والقديمة مع المؤذّن.

أما أنا فلا أبرئ نفسي، فقد جبنتُ أنا الآخر عن قول كلمة حق في وجه كهنة "آمون" من هذه الشريحة الكهنوتية التي باتت تتكاثر في بلادنا كما تتكاثر الضفادع في مجارير بلادنا. فليعذرني الصالحون منهم، فأنا أعلم أن التعميم عماء، لكن لربما ما لا يعرفه الصالحون اليوم أن حبة البندورة الفاسدة قد تفسد اخوتها.

تلفّت المشرد محاولًا الهرب فأسرع الخطيب يتمسّك به بكلتا راحتيه فبدا ذاك المسكين كحبة توت تركت أثرها على قميص الخطيب الأبيض. كان ذلك إلى أن اقترب أحد العابرين من المكان، والذي سرعان ما انتصر لذاك المسكين، فقال:

- أنا من اشترى له ذاك النعل.

وقام بإثبات ذلك من بائع الأحذية.

حُلّت القضية، اعتذر الجميع من ذاك العابر وتركوا ذاك المشرد مكسور الخاطر بلا اعتذار كأحد حثالة هذا الوطن الذي لا يمتلك احساسًا تفرّق الجميع كما لم يفعلوا شيء، كما لم يكن هناك ضمير يتألم لِما فعلوه. المؤذّن ذهب يتمايل إلى رزقه يبيع الدخان والأراجيل، وذهب خطيب المسجد يبحث عن فتوى دينية يجني من ورائها المال، في حين تفرّق التجار الآخرون أمام محالهم التجارية يغازلون الصبايا من على جنبات الطريق.

جلست على جزيرة وسط القرية أتذكر قول صديق قديم قال لي ذات مرة:

- رجال الدين هؤلاء مثل طالب الثانوية العامة، حين تراه يفشل في تحصيل معدل جيد لدخول فرع جيد فهو يلتجأ لقسم الشريعة لهذا تجد أغلب رجال الدين من حولك فاشلين، في حين إن القسم الآخر فهم من ذاك الصنف الذين يفشلون في تحصيل رزقهم بعرق جبينهم فيلجؤون إلى المتاجرة بالدين ويستقوون على الفقراء.

***

لا أريد الموت من أجل الوطن

أخبرني صديق لجأ الى أوروبا منذ وقت قريب عن ظاهرة تنتشر في المجتمع الغربي مردها حالة اليأس الجماعي، تدفع مصابيها إلى الانتحار بشكل جماعي، السبب أن هذه الشريحة ترى أنها اختبرت كل شيء في الحياة لهذا تنحو تلك القطعان اليائسة لاختبار "تجربة الموت الفريد" فيقدمون على الانتحار كإقدامنا على الحياة.

البارحة وبعد ٧٤ يوم من الانتظار لدور الغاز ذهبت إلى المحطة للوقوف في الطابور العشوائي، الناس من حولي يتدافعون وهم يتفصدون عرقًا وتعبًا رغم برودة الجو ليصلوا إلى باب المحطة، أنا أعرفهم، فأنا منهم، لقد جربوا الموت خلال تلك السنوات العصيبة بتفاصيله اليومية، ويقاتلون الآن في أعمق ساعاتهم بؤسًا كي يجربوا الحياة.

نحن جيل لديه معضلة حقيقية في فهم الدور، ففي المدرسة حين كنا صغارًا لم يتعبوا وهم يكتبون على السبورة، على الجدار، في الفرقة الحزبية، في الجامعة، في المشفى، في المسجد، في الكنيسة، في المخفر، في دورات مياه رابطة المحاربين القدامى، على سطل صدئ في مكب النفايات، على الحاويات، في الملجأ وفي الميتم عبارة "ما أجمل الموت في سبيل بلادنا".

واليوم وبعد أن متنا جميعنا لأجل هذه البلاد ألف ميتة وبأبشع الوسائل اتضح أننا كنا نموت لأجل شيء ليس لنا، لم يكن لنا، شيء لا ندرك معناه، ولا نعرف اسمه، ما اسم هذا الوطن لا ندري، كلنا هنا في هذا الطابور لا ندري، لا نريد أن ندري، لكن ما أعرفه أنهم هنا جميعًا ينادوه دائمًا ب: "يا هووو"، يا "بست"، أو "ذاك البلد"، كما وأننا نقول: "ذاك المرض".

لأننا جميعنا بتنا نخاف ذكر اسم الوطن الذي متنا لأجله، نخشى الكتابة عن آلامه في مذكراتنا اليومية، نخاف أن نغازله مع زوجاتنا، ونخاف أن نشير عن مكانه لأولادنا في كتب الجغرافية، لأنه ليس لنا.

لهذا كله نبت من حولنا جيل جديد بات يرقص هازئًا حين نغني: "نموت.. نموت ويحيا الوطن"، لأنهم وعوا تمامًا أنهم هم الوطن، لهذا يصعب أن تجد أحدهم اليوم يريد الموت في

سبيل الوطن، فأنا أيضًا لا أريد الموت من أجل بلادي، كثر غيري أيضًا، جميعنا اليوم وهو يتابع حروب الكبار من حولنا يضحك ساخرًا وهو صاحي تمامًا من خيباته ويريد أن نحيا من أجل الوطن، فليتهم إذًا يكتبون على الجدران "ما أجمل الحياة في سبيل بلادنا"، ما أجمل أن نعيش لأجل الوطن، لأننا نحب الحياة ونحب الوطن.

ورغم أن المشكلة تبقى متأصلة في المبادئ العتيقة، فهي بقدر ما تتبدل في بلادنا تبقى هيا إياها. مع ذلك لتحفظوا هذا الأمر جيدًا: "مصلحة الوطن هي في أن نحيا لأجله ليس فقط للموت في سبيله".

***

تذكروا وجوه آبائكم

بعد تفكير مطوّل في كيفية كسر ميزانية المنزل، طوّحتْ زوجتي نحوي نظرة ماكرة ثم قالت بهدوء وسكينة:

- فرّوج، وعمرين ما حدا يرث،

ويكأنها علمت من ترددي في بحثي عن فتوة معيشية حول غداء اليوم.

ومن هذا المبدأ اندفعت قدماي على عَجل إلى محل "دربل للفروج" الحي في القرية، من بين رائحة الدجاج العطنة والريش المدعوك بالعلف والماء الآسن نط أمامي صبي أسمر، نحيف بشعر مكزبر، حك أنفه الصغير النافر والقشيب مثل حبة فطر متوسطة، ثم سألني بأدب:

- كم طلبك؟

ثم قفز خفيفًا كثعلب جائع بين الدجاجات حتى ارتخت تكة بيجامته فبانت نصف مؤخرته السمراء والحلوة. حمل دجاجة ووضعها على الميزان، كنت أتابعه كمن كنت أعلم أني سأكتب عنه، فكل شيء به ينبئك أنه لو تسنت له الظروف لكان "كاركتر" لطيف لفيلم مأساوي طويل.

حمل السكين وتمتم بتردد:

- باسم الله، سبحان من حللك للذبح.

ثم أثقل يده وجز عنقها بتوجس حتى تسايلت روحها من بين أصابعه. طبطب صاحب المحل على كتفه وختم طبطبته بعبارة:

- عفارم.

انتاب الصبي الفخر لذاك الإطراء ولصنيعه. هنا كان ينبغي سؤال ذاك الصبي المتخايل بشيء من فضول:

- هل تعمل هنا؟

- لا؛ أنا أنتظر أمعاء الدجاجات كي آخذهن لكلبي.

- لديك كلب؟!

- نعم وأسميته "دوخي".

- ولما تربي كلبًا؟

- الكلب أحسن من الإنسان يا عم، الإنسان سيء، نصفه سيء، أما الكلب فكله جيد.

إنها وجهة نظر مأساوية حول الطبيعة البشرية من صبي لازال في العاشرة. غادر الصبي المكان حاملًا كيسًا مليئًا بأمعاء الدجاج كطعام دسم لكلبه "دوخي"، وعلى إثره وبينما أراقب مؤخرته وهو يعبر الشارع ويطلق صفيرًا مزعجًا لأصدقائه انتابني شعور المحب نحو هذا الرجل الذي لازال في العاشرة.

سألت صاحب المحل، إكمالًا لفضولي، عن سبب السماح لصبي صغير بذبح دجاجاته، مسح صاحب المحل يداه الغارقتان بالدماء بوزرته المتسخة حول خصره و أجاب: "هذا حمدان، وقد رجاني والده أن أدرّبه على ذبح الفروج الحي". أمام هذا الجواب كررت فضولي أمامه وسألته السبب، فقال إن والد هذا الصبي طلب ذلك لأنه سيهاجر في حال استلم جواز سفره، ولهذا أراد الأب أن يدرب ولده على ذبح الفروج الحي كي يقوى قلبه ويقسى، لأنه لا يعلم إن كان سينجو في هجرته أم لا، وفي حال قتلته الهجرة كما فعلت بكثر قبله سيكون الصبي "حمدان" قادرًا على حماية والدته وإخوته الصغار من بعده.

في هذه القطعة المحترقة من العالم والتي يسمونها "سورية" هناك أب من بين ألف أب يبقى مع أبنائه ولا يتركهم، بينما الصامد الوحيد من بين تلك الألف يندم على صموده وأنه لم يغادر.

تذكروا، وجوه الآباء مصاحف مقدسة لو تدرون، والأبوّة كالنبوّة لا تختلف عنها بشيء حيال العاطفة والتعاطف، لكننا نظلم هذه السجية الذكورية في الأدب والدراما والصحافة، قد نظلم الذكور المنكوبين بأبناء متطلبين. قد نظلمهم في الحرب وفي السلم حين يتركون منازلهم وحبيباتهم وأبنائهم وحكايا جداتهم مكرهين؛ ليغامروا بالغربة باحثين عن حياة حلوة، كي لا يشقى الأبناء كما شقوا هم وتعذبوا بها.

لا وصية لأبنائنا التائهين بالحياة الآن إلا أن يبقوا أقوياء، قساة، على قدر الواقع والوجع وعلى قدر الحمل، وإنه والله لحمل ثقيل. حين تكبروا تذكروا وجوه آبائكم الطيبين من أعطوكم السكين وعلموكم الذبح لكنكم لم تعيدوها لهم أبدًا، لهذا ترحّموا علينا، على آبائكم، الأحياء منهم والأموات، أدعوا لهم بقلوب محبة وحنونة، لأن الراحمين يرحمهم الله، لأنهم ليسوا قُساة، لم يكونوا كذلك، تلك السنوات العشر هي القاسية وحياتهم هنا كانت مرّة كالعلقم لو تدرون.

***

تنمر الأكثرية

أنا لا أجيد التكلم باللهجة الشامية كما ينبغي وهذا الأمر ليس وليد اليوم، ولا كذلك أي لهجة سورية أخرى من تلك التي يتم فيها استبدال حرف (القاف) ب(همزة). وإن حصل وفعلت ذلك كنت كمن "خلط الشامي مع العامي"، لهذا الأمر أنا ولساني الثقيل بهذه اللهجة ذات الأحرف اللثوية الثقيلة عرضة للتنمر المستدام.

ففي آخر مرة لي في "دمشق" قبل أيام زرت إحدى المؤسسات الحكومية لاستكمال إجراء ما، وقفت على نافذة الخدمة، حيث جلس موظف حاد الملامح، بأنف معقوف وعينان حادتان كعينا صقر. إذ أن فرضية أن الطيور تشبهنا نحن البشر هي فرضية أخرى قديمة تراودني مذ عملت نادلًا في أحد مطاعم "دمشق" حيث كان المطعم شراكة بين ثلاثة أشخاص، كانوا حين يجلسون مع بعضهم البعض ليناقشوا أمرًا ما، أجدني لا أهدأ وأنا أتخيلهم كثلاثة طيور على ثلاثة كراسي، الأول كان يشبه عصفور الدوري، ضئيل برأس دقيق وسريع الحركة، والثاني كذلك رغم أنه ضخم، في حين الثالث كان يشبه طائر "الهدهد"، يطوي غرّته على جنب ليخفي صلعة صغيرة، تمامًا كما راودني اليوم شعور أن يكون أصل هذا الموظف في هذه المؤسسة من فصيلة الطيور الجارحة، إذ يمتلك لسانًا حادًا كمخلب "صقر" دنيء، إذ ما إن بدأتُ بالحديث حتى ضحك ثم طلب مني معاودة ما قلته بلهجتي المحليّة، ثم حدد بالاسم أن أعاود تكرار كلمة (حكي) والتي لفظتها بمعرض حديثي معه إذ لفظتُ حرف الكاف كما ينطق حرف (ch) في كلمة (children)ب"الإنكليزية".

أنا كرجل في الثلاثين استطيع أن أميز ما بين المزاح والتنمر، فمديري في المطعم في وقت سابق، ذاك الذي يشبه "الهدهد"، كان رجلًا طيبًا ومرحًا، كان كلما أراد المغادرة صرخ بصوت عالي على شركائه بلهجة ديرية:

- عاوز شين؟

أي يقصد "أتريد شيء قبل أن أغادر؟". وهي عبارة التقطها ولم يتركها من لهجة شاب من شرقي البلاد كان يعمل معنا في المطعم.

بالعموم لا يزعجني أن يستغرب المرء لهجة شخص غريب، فأنا الآخر حين ألتقي أحد من العاصمة في منطقتي الريفية أشعر بغربته حقًا، تمامًا، كما أشعر بالدونية وسط العاصمة بلساني الثقيل، كذلك الأمر بالنسبة للأقليات في أي مجتمع إذ يتم التنمر عليها من قبل الأكثرية، لأن الأكثرية هي التي تضع قواعد العيش ونمط الحياة الاجتماعية وهذا هو العرف العام الذي تأسس عليه علم الاجتماع البشري. والمتنمرون عادة ما يكونوا من المحسوبين على الأكثرية في أي مجتمع وفي أي وقت وهذه هي الحالة الطبيعية والصحية لأي مجتمع. وفي حال حصل أن مارست الأقليّة التنمر على الأكثرية فهذا يعني أن خللًا عامًا واقعًا في المنظومة المجتمعية.

***

اسم مستعار

ذات مرة كتبت مقالًا بعنوان "من يرضا يعيش لكن من لا يرضا يعيش أفضل"، راودتني فكرة المقال حين كنت مشغولًا بالهجرة بفعل الحرب مثل ملايين الأزواج السوريين، وخلال تلك الأيام الصعبة تمشّح وجهي بتقاسيم ناشفة وقاسية، للمصادفة بعد أيام ذهبت زوجتي في زيارة لأهلها لحضور إحدى المناسبات العائلية، لم أتمكن حينئذ من مرافقتها، لهذا ودعتها بوجهي الكالح والمكرر كأي زوج تسكنه الحرب، وحين تأخرتْ بالعودة على غير العادة اتصلت بها متسائلًا سبب تأخرها، فقالت بلكنة "روبن هودية" أنها لن تعود حتى أعدها بتنفيذ شروطها، وهي أن أمسح وجهي بالرحمن وأعود ذاك الزوج "الكيوت" والطيب، وأن أستبدل بقرتي الشرسة - التي بات اقتناؤها عبئًا بغير ذي نفع - بأخرى مدجّنة وهادئة.

وحين سألتها عن سبب هذا التحول في لهجتها فقالت بتبصّر:

- من لا يرضا يعيش أفضل أيها الزوج الطيب.

لزمتُ الصمت كي لا أكون ممن يقولون ما لا يفعلون، فطوال سنوات مزاولتي مهنة الصحافة كنت صيادًا لتقولات الآخرين على الآخرين، أما اليوم ينبغي للمرء أن يعترف بأنه بات طريدة.

لهذا وبعد أيام تناولتُ القلم وأخذت أكتب بتحايل أنا الآخر، فكان المقال هذه المرة بعنوان "الحياة الهادئة نعمة"، لعلها تعزف هذه المرة عن أفكارها المتمردة.

وفي اليوم التالي حدث أنها لم تصنع طعامًا بالمطلق، فجلبتُ الحواضر من الزيت والزعتر وتربعت تأكل أمامي بنهم، ثم طوّحت عيناها نحوي بتزوّر وكأنها تعلم صدمتي لعدم صنعها طعامًا، فقالت بابتسامة ماكرة وقد فردت جناحيها للهواء:

- الحياة الهادئة نعمة يا أخي.

منذ ذاك اليوم أدركتُ كم الصحافيون في هذه البلاد مساكين، مجردين من أبسط حقوقهم الشخصية. لهذا حملت أوراقي على ظهري وانضممت مكرهًا إلى حزب الصحفيين

المستعارين، من لا يمتلكون وجهًا ولا هوية، إلى زمرة الأزواج الكثر في بلادنا ممن باتوا يكتبون بأسماء مستعارة، وحين يسألني المقربون جدًا عن السبب لجعلي تذييل مقالاتي باسم مستعار أميل لهم عنقي تخايلًا، وأشير إليهم بصوت خافت متقطع بأن كلماتي العميقة والمؤثرة باتت تؤلم الحكومة ولا رغبة لي أن أكون "نيلسون مانديلا" هذه البلاد. وفي داخلي أدرك أني لم أكن أريد أن أكون "أبو بدر" هذا المنزل.

مع ذلك لست الفريد في هذه الحيلة، فمثلي يفعل المناضلون حول العالم بأن يهربوا من زوجاتهم خلف أسماء مستعارة ليكيلوا الاتهام ظلمًا للحكومة، لينالوا بذلك الجوائز الصحفية ويكسبوا ود زوجاتهم.

***

عجوز في الثلاثين

خرج من باب مدرسته يركض نحوي وهو يرتدي حقيبته، نط خلفي راكبًا الدراجة النارية ثم تشبث بظهري كمن يركب حصانًا، سألني بلَهَج: إن كانت الكهرباء لازالت مشتعلة؟ وبدأ وقت التقنين، ثم طلب الإسراع ليكمل متابعة "غامبول" فيلم الكرتون المفضل لكلينا.

قدت الدراجة وسرت بنا إلى المنزل، على الطريق سألته كما يفعل أي أب يرغب في معرفة كيف كان نهار ابنه في الروضة، فقال بسأم:

- لقد سألتنا المعلمة ماذا نريد أن نصبح حين نكبر؟

- ها وماذا أجبتها؟

- قلت لها سأصبح كبيرًا مثل أبي، لكنها ضحكت.

ضحكتُ أنا الآخر وأوضحت له أنها تقصد هل تريد أن تصبح مدرسًا، أم طبيبًا، أم مهندس، شيء نافع لك و لعائلتك وللمجتمع. فقال بشيء من عصبية:

- وهل (الزلمة) مثلك ليس له نفع للعائلة والمجتمع؟

- مممم، بلى لكنه غالبًا ما يكون عاطلًا عن العمل.

مط رأسه نحوي قليلًا وصاح كي يبلغ سؤاله أذني:

- وأنت ماذا تريد أن تصبح حين تكبر؟

حين كنت صغيرًا كنت أنوي لأصبح طبيبًا، حلم كل الريفيين، لكن لو تسنى لكل شخص منا تحقيق أحلامه لكانت بلادنا الآن مشفى كبير للمجانين. لكن بدل قول ذلك له تكوّم لساني مشلولًا أمامي وشردتُ عن الإجابة، ألقيتُ نظرة محزونة إلى مرآة دراجتي، عدلتها خلال قيادتي لتظهر مراغم وجهي، خطوط الشيب على صدغيّ أخذت تحتل قُصة رأسي، عيناي الغائرتان حزينتان منهزمتان أمام تلك الصورة المنكسرة لعجوز في الثلاثين، كان ينبغي أن أقول له أني سأصبح مومياء أو مستحاثة، فهذه الحرب أكلت أحلامنا كما التهمنا الشيب، لكنني لم أتفوه

بحرف، لأنه سيدرك يومًا أنه هو "أبناؤنا" ما نريد أن نصبحه يومًا، وحين يكبر سيدرك أن المرء في بلادنا يصبح وهو في الثلاثين على ما هو عليه من العجز والشيخوخة فقط حين يتوقف الآخرون عن سؤاله ماذا يريد أن يكون حين يكبر، فينزوي في زوايا شحيحة الضوء ليتمنى لو أنه يعود طفلًا.

لهذا صحت على الطريق الريفي الزلق وأنا أضغط على البنزينة مسرعًا:

- دعنا نلحق الكهرباء لنكمل "غامبول".

***

سفاح عام ٢٠٠٠

في العام ٢٠٠٠

كنت في الإعدادية، في مدرسة نائية على أطراف الريف، فتم في ذاك العام على نحو نادر الحدوث افتتاح مكتبة صغيرة في تلك المدرسة والتي اعتُبرتْ بادرة لطيفة من قبل الإدارة وقتئذ، وعليه وَضعتْ إدارة المدرسة خطة لتنشيط الحس الفني والأدبي بين الطلاب لاكتشاف مواهبهم.

سارعت معلمة اللغة العربية اللطيفة والأنيقة على الدوام بالطلب من أربعة طلاب كنت أنا أحدهم بتمثيل مسرحي حيّ لقصة "الذئب والمعزات الثلاث" الشهيرة، وهي إحدى روائع الأدب العالمي. أعجبتني الفكرة، فلدي تجربة سابقة في التمثيل المدرسي حين لعبتُ دور "سكّير شكسبير" في "تاجر البندقية" في الصف الفائت؛ لهذا وقفنا أربعتنا بالتساوي أمام المعلمة لتوزع الأدوار بيننا، وددت حينها في سري أن ألعب دور الثعلب الماكر، أعتقد أني أجيد أدوار الشر، أو دور المعزاة الذكية التي تكيد لذاك الثعلب بذكاء نهاية الحكاية، لأن من يجيد أدوار الشر بإمكانه أن يضع حدًا لها، لكنها بدل ذلك أسندت لي مهمة تلك المعزاة الهزيلة والبائسة ذات الضرع الناشف التي يتم التهامها مع بداية الحكاية.

في حين أنها منحت دور الثعلب لطالبة جديدة في صفنا جاءت هي وعائلتها من أقصى الريف إلى قريتنا منذ وقت قريب. توقفت المعلمة أمامها، لحستها بعيناها البنيتان تتفحص حالها، ثم قالت بتهكم:

- أنتِ هو الثعلب، سترتك الطويلة المهترئة ووجهك الجامد والحاد وبشرتك السمراء يقولان لي أنكِ ستكونين ثعلبًا ماكرًا جدًا.

ضحكنا جميعًا، لكن تلك الفتاة لم تتفوه بحرف، تسمّرت عيناها على ناظريّ المعلمة وانصرفت إلى مقعدها بانزعاج.

طوال اليومين التاليين وأنا أتدرب على ذاك المشهد الحزين، كيف آكل العشب بكسل في الحقل، من ثم أزحف هاربًا من بيتي المصنوع من القش من ذاك الثعلب المتنكر بصوت معزاة ولا ألقي لتحذيرات إخوتيَّ أي بال لمكره، ليجدل ذاك الماكر عنقي بسرعة وبخفة ويطحن حنجرتي كما يطحن الدب رأس عصفور، بعدها أصرخ غارقًا في دمي:

- آ-آ-هـ، لقد خدعتني أيها الثعلب، آ-آ-هـ ليتني سمعت النصيحة

قبل أن أسقط ميتًا ومأكولًا. التهمتني تلك الفتاة المستذئبة ثم انهالت تلكمني على رأسي بكلتا يديها بحقد دفين بعدة ضربات موجعة هي خارج إطار السيناريو أصلًا استنجدت بنظراتي من المعلمة طالبًا منها العون والمدد من قبضة تلك الفتاة، فأشارت لي المعلمة بيدها كشخص عاش دور الإخراج أن أكمل المشهد الدرامي، وكأنها تقول لي أنه لا مانع من الارتجال.

انتهت المسرحية على خير، وصفّق الجميع لتلك الفتاة، وقامت المعلمة بتكريمها واحتضانها، ثم سحبت دبوسًا من مؤخرة شعرها المعقوص تحت شالها الزيتوني ثم منحته لها كهدية.

أما أنا لم يصفق لي أحد، ولم يمنحني أحد دبوسًا، لربما لأنه غالبًا، ما تعتبر أدوار البسطاء والتعساء المُلتَهَمين في بلادنا بغير ذات قيمة أو نفع، وأنه دائمًا ما يتم تكريم الأشرار من حولنا.

تفرّق الجميع، وفي اليوم التالي كان الكادر التدريسي في المدرسة منزوع المزاج، مرعوبًا على غير العادة حين وجد مدير المدرسة قصاصة ورقية على طاولته كُتب عليها "سفّاح عام ٢٠٠٠" لم يهتم المدير للأمر في وقتها، لكنه أصيب بالفزع حقًا ومعه باقي الكادر التدريسي حين وجدوا مثل تلك القصاصات في المكتبة وفي المختبر وفي دورات المياه وفي الصفوف والممر والباحة.

سادت الفوضى المدرسة واستمرت تلك القصاصات بالتساقط على المدرسة لأيام، حتى بات الأمر تهديدًا يرعب الجميع.

قرر المدير إجراء تحقيق في القضية، فقام بتفتيش كل شيء في المدرسة حتى الموظفين، من ثم طلب من كل طالب بأن يكتب على قصاصة ورقية عبارة "سفّاح عام ٢٠٠٠" ليقارنوا نوع الخط، وما هي مدة قليلة حتى جمع المدير الطلاب في الباحة، وقف على المنصة وقال للطلاب وعلى وجهه علائم الإرتياح:

- لقد تم إلقاء القبض على السفاح وقد تم طرده، تهانينا.

دون أن يضيف أي شيء عن هوية السفّاح أو اسمه، لكن منذ ذلك الحين لم نعد نعلم أي شيء عن مصير تلك "الفتاة المستذئبة"، التي اختفت كما اختفت تلك القصاصات. وحين قام أحد الطلاب بسؤال معلمتنا اللطيفة ذات الشعر المعقوص عن مكان السفاح قالت باقتضاب:

- السفاحون أشخاص غرباء غالبًا ما يأتون من أقصى الريف.

***

هناك انفراجه

بعد أن أخذ ينفض الزيت من قاعدته المهترئة، حملت رأس وابوري القديم وجررت ساقاي إلى إحدى المحال التجارية الخاصة بتبديل قطع مواد الصحيّة.

كان المحل كبيرًا ويعوم بقطع الغيار، يصح هنا قول القائل أنك ستجد فيه ما تريد من الإبرة إلى الجمل، لهذا جعلت أنتظر لينتهي بعض الأشخاص، ممن يحدثون زحمة، من الابتياع حتى اشتري رأسًا جديدًا. عند باب المحل يجلس رجلين خمسينيين وفي يد كل منهما علبة "كولا" بلاستيكية، كان أحدهما كثير الحركة والكلام، والآخر عبارة عن متلقي بعينان ناعستان وأقصى ما يفعله هو الانشداه لما يقوله رفيقه.

زرعتُ عيناي بوجههما، إنهما يمتلكان وجهان مكرران هنا، تخيلو بقايا أسنان جاري "عمر" المتخشبة والمصفرّة، وعينا الداية "هنية" المتغضنتان، وصلعة "ممدوح" زوج "رانيا"، وأنف "محاسن المستذئبة" الطويل الذي يرف على الدوام حين تتحدث، إن وجهي هذين الرجلين يجمعان كل تقاسيم هؤلاء البسطاء الذين أعرفهم في حياتي وكذلك منطق حكمتهما.

كانا غارقان في حديث عام، لكن ما شد انتباهي هو ما قاله الأول:

- ... الضربة التي لا تقتلك تقويك.

فرد عليه الآخر بهدوء:

- صحيح، لكن بعض الضربات تصيب بالشلل.

- هناك انفراجة، أي والله، وقريبًا ستصبح ربطة الخبز ب ١٢ ليرة ونصف، هذا كلام موثوق، أي والله، وستصبح ربطة الخبز بكيسين بدل الكيس، كيسين وعلّم على كلامي إن لم يحصل ذلك، والرغيف سيصبح مدور وكبيير هكذا (ثم حلّق بيديه بدائرة كبيرة بمقاس نصف متر) وبثلاث طبقات ومعجون بالحليب والسكر والقشطة مثل الشعوب التي تحترم حالها، سنصبح من الشعوب المحترمة، والربطة الواحدة تسعة أرغفة، تسعة أرغفة، هناك انفراجة أقسم بالله، أنا بحياتي لم أكذب.

كان رفيقه ذو العينان الناعستان يكرع الكولا بهدوء ويهز رأسه بتعجب واندماج وهو يستمع لانفراجات رفيقه بأسارير مبتهجة، حيث أضاف رفيقه:

- وسيتم منح رواتب للعاطلين عن العمل، أي والله، ورحمة "وداد" هناك انفراجة، لكان، نحنا ببلد صار لازم ينهض، يشد حاله شوي ويقوم.. رواتب لكل شخص عطّال بطّال، وسيقوم كل شخص باستلام راتبه من المصرف التجاري، الرجال يستلمون رواتبهم من المصرف التجاري أما النساء العاطلة عن العمل سوف تستلم راتبها من المصرف العقاري كل شهر، ليش برأيك؟

- ليش؟

- حتى لا تقع هناك زحمة، سمعتهم يقولون ذلك في التلفزيون، تفاءل يا أخي فالقدر معلّق بالمنطق.

صاح عليّ صاحب المحل، فقطع اتصالي بهما، دخلت معه في سراديب محله الطويلة نبحث عن رأس لوابوري بقياس متوسط. وحين خرجت كان الرجلان في مكانهما يجلسان. لكن الرجل الرديف والهادئ ذو العينان الناعستان قد أنهى علبة الكولا، وقف وصاح باشمئزاز:

- هناك انفراجة نعم، لكن هنا ب ...

ثم فرج ساقيه الهزيلتين وأشار باصبعه إلى ما بينهما، وأردف ذلك يضحك ضحكة "أيمن زيدان" في مسلسل "يوميات مدير عام".

وفق "داروين" إن أكثر الأنواع أفرادًا أكثرها حظًا في إنتاج تحولات مفيدة في زمن معين، أي أنها أوفر الأنواع إنتاجًا، يسوقنا هذا الاعتبار "الدارويني" إلى التسليم بأننا نحن "السوريون" بقايا "الفينيقيين" جنس من الأجناس البشرية النادرة ممن (ضربها الاستضعاف في معمعة التناحر على الحياة فأصبحت مُستهدَفة لحروب شعواء تشنها عليها الأنواع المُحسنة) حتى أتى عليها الإنقراض.

وخلال سنوات الصراع تكاثرت تلك الأنواع "الداروينية" المحسنة من حولنا كمثل هذان الرجلان الطيبان، ففي حياتنا اليوم أشخاص كثر على شاكلة هذان المتسائلان ممن ضربهم الاستضعاف في معمعة هذه السنوات الرتيبة والقاسية.

***

يُحكى أن.....

يُحكى أن شابًا عربيًا ودّع صديقه و ترك الوطن وغادر إلى بلد أجنبي، وحين حطّت قدماه على الأرض الجديدة وجد نفسه وحيدًا غريبًا مهيض الجناح، لا طعام ولا مأوى ولا هوية، وما هي أيام حتى أصبحت حديقة المدينة الرئيسية ملجأه الوحيد، يفترشها ليلًا ويأكل من حشائشها في النهار، مرت الأيام فالتقطه أحد السيارة، اقترب منه بدهشة وسأله عن سبب أكله للحشائش، فأخبره بعوز عن قصته، وما هي سويعات حتى قفزت أخباره بسرعة إلى عمدة البلدة الذي جرى نحوه وسارع لمنحه إقامة دائمة في البلاد ومنزلًا جميلًا وراتبًا غير منقطع، ليتحول خلال أيام فقط لأحد المُلهمين في البلاد.

على أرض الوطن لازال صديقه القديم يكش ذباب حارته فاردًا ذراعيه للبطالة، وفي اتصال بينهما أخبره من نفخ الله في صورته مغتربًا كم يحيا في بحبوحة ورغد العيش في وطنه الجديد، فأعجبت المغترب في وطنه قصته وبعد أيام ترك منزله الصفيح وجرجر نفسه إلى حديقة في العاصمة وراح يأكل بنهم منها الحشائش والأعشاب، بعد مرور سنوات تناقلت وسائل التواصل الاجتماعي قصة (ابن الحدائق) ذاك، الأمر الذي حرّك أمين العاصمة لحل القضية، فاتجه ترافقه وسائل الإعلام، صافحه و التقط معه "السيلفي" ثم ألقى خطابًا مطولًا وملهمًا في حضور بعض المشردين، وبعد سماعه لقصته أخرج أمين العاصمة من جيب سترته النظيفة بطاقة مطوية، حملها المشرد وراح يقرأ برغبة عارمة في البكاء:

- يُسمح لحامل هذه البطاقة أن يرعى ويسرح ويأكل من جميع حدائق وحشائش وطننا الجميل بدون أي مضايقات أمنية.

ومنذ ذلك الحين والشبان في بلادنا إما يأكلون الحشائش على جنبات الطرقات وإما تركوا البلاد ليأكلوا من حدائق الآخرين.

***

يصطاد الدبور الجندب النطاط ويضعه في حفرة في الأرض، ثم يخزه في المكان المناسب تمامًا حتى يفقد وعيه، ولا يدري الجندب المسكين أنه سيعيش منذ تلك اللحظة كنوع من اللحم المحفوظ لبقية حياته القصيرة. تنتهي مهمة الدبور الذكر هنا، فتضع أنثاه هي الأخرى بيضًا في المكان المناسب من جسد الجندب، ثم تغطي الحفرة وترحل بابتسامة رائقة لتموت ببال مرتاح لمستقبل أولادها، وحين تفقس الدبابير الصغيرة يمكنها أن تتغذى على الجندب المخدّر (الحي الميت) حتى يموت ببطء ليحيا آخرون.

لايزال الدبور يفعل ذلك بحق الجنادب منذ الأزل، ولاتزال تلك العملية تتكرر إلى اليوم ولا يعلم إلا الله متى ستنتهي.

يعلم الدبور أنه إن لم يفعل ذلك بتواتر ستنقرض أمّته، لكن ما لا ندريه -لماذا لم تستطع تلك الأجيال من الدبابير أن تبتكر طريقة أخرى أقل سوداوية ولؤمًا ليستمر جنسها في الحياة؟، -ولماذا ينقاد ذاك الجندب النطاط الأهبل لتقديم الولاء في مزرعة ليست له؟، وهو يعلم أنه يومًا ما سيتم تخديره حتى يؤكل ببطء.

عزيزي القارئ المخدّر، في نهاية كتابنا عليك أن تعلم أننا ملقحون من غير جنسنا، في لحمنا يفقس بيض ليس بيضنا، مخدرون مثل جندب نطاط، لأن آخرين لا يرتوون إلا من دمنا ولا يسمنون إلا من أكتافنا، من تعبنا، من إيماننا بهم. لكن؛ إن كان الله قد منحنا هبة (النط) ومنح لهم هبة (الوخز والتخدير)، وشاءت الأقدار أن نحيا سويًا في هذه المزرعة المغلقة، يفضل لنا في أيامنا الأخيرة أن نقول لجندب أحبه الله ونط خلف الحدود وهرب:

- لا تعد لمزرعتنا، لأننا ننقرض، فبين النط والتخدير لا تنسى أن في مزرعتنا دبابير.

تمت

آذار/مارس ٢٠٢٢

المحتويات

قط مشرد وفأر مُجهد ١٢
نجوى الطيبة ١٥
عبيد ينصحون عبيدًا ١٩
امنح عجينتك الوقت ٢٢
متفرغ للحصاد والأعمال الأدبية ٢٥
حب في الريف ٢٩
طرافولطا ٣٣
أولاد المتسخة ٣٧
الحياة الهادئة نعمة ٤٠
بطل الإنتاج ٤٣
الداء والدواء ٤٦
قل الحمدلله ٤٩
رفاق على الطريق ٥٣
أنا لا أحب المثقفين ٥٧
وصفة السعادة ٦١
بين بخلاء الجاحظ ٦٥
مطعس أبو رجل خشب ٦٩
نساء مستعملة للبيع ٧٣
نحن ننقرض ٧٧
بقرتنا الحمراء المحققة للأمنيات ٨١
بين كهنة آمون ٨٤
لا أريد الموت من أجل الوطن ٨٧
تذكروا وجوه آبائكم ٩٠
تنمر الأكثرية ٩٤
اسم مستعار ٩٧
يُحكى أن ١٠٠
عجوز في الثلاثين ١٠٣
سفاح عام ٢٠٠٠ .... ١٠٧
انفراجة ١١٠